

45

دوايات عالمية للجيب

Looloo

www.dvd4arab.com



تأليف : جوزيف كونراد  
ترجمة وإعداد :  
د. أحمد خالد توفيق

قلب الظلام



## المؤلف



ولد (جوزيف كونراد) فيما يعرف بـ (أوكرانيا البولندية) ، وهي - كما يدل الاسم - منطقة تقع بين روسيا وبولندا . وكانت أسرته تنتمي لطبقة تدعى (زلاختا) من متكلمي البولندية ، وهي طبقة نبيلة لكنها لم تعرف بالثراء . كان

أبوه سياسياً متوسط القيمة وأديباً مغموراً لم تترك كلماته أي أثر لدى القراء ، لكنها تركت أعظم الأثر على ابنه (جوزيف) .. الذي ولد عام 1857 .. والذي قدر له أن يكون أديباً عظيم الشأن .

كانت علاقة الصبي بالمجتمع البولندي سطحية وإن هوى الموسيقى بشكل خاص ، وارتبطت في ذهنه بصورة أمه الجالسة إلى البيانو ، والتي كتب عليه أن يفقدها بعد أعوام .

## روايات عالمية لا يجب .....

سلسلة جديدة ، تقدم لك أروع ما يزعج به الأدب العالمي ، في مختلف صنوفه ..  
من الألفاظ البوليسية إلى الرواية الرومانسية ..  
من عالم المغامرات إلى آفاق الخيال ..  
من الفروسية إلى دنيا الأساطير ..  
ومن الشرق إلى الغرب ..  
وإلى الحضارة ..  
واليك ..

د. نبيل فاروق



بسبب السياسة تم نفي الأسرة من بولندا ، وتوفيت  
الأم بالدردن بينما ( جوزيف ) فى سن السابعة ، وتبعها  
أبوه فصار ( جوزيف ) الصغير يتيمًا فى الحادية عشرة  
من عمره . وكان على عمه المحب أن يعنى به .

عام 1874 يتجه الصبى إلى فرنسا حيث يتعلم  
هناك الفرنسية وأصول الملاحة ، ويتعرف مجموعة  
من الأدباء البوهيميين الذين جعلوه يعرف معنى فن  
الدراما . وسرعان ما صار خليطًا من بحار وفنان ،  
ولسوف يبقى هكذا طيلة حياته .

عام 1878 يرتحل الفتى إلى إنجلترا راغبًا فى أن  
يعمل ضابطًا على السفن البريطانية . فصارت حياته  
لمدة عشرين عامًا دورة من الملاحة البحرية ثم  
الراحة على اليابسة . وكان موسومًا بالحاجة إلى  
المال على نقيض أبيه الذى كان يمقت المال بشدة .

ومن الغريب أنه قرر أن يكتب - أول ما كتب -  
بالإنجليزية لفته الثالثة بعد البولندية والفرنسية ،

وهو ما يدل على أنه اختار بريطانيا لتكون وطنه  
الثانى والأخير . وبعد رحلة إلى الكونغو عام 1890  
كتب ( قلب الظلام ) .. وكان يدين الاستعمار بعنف  
فى كل كتاباته فى تلك الفترة ، وهو ما سنراه  
بوضوح فى هذه الرواية .

بعد وفاة عمه الثرى نال إرثًا مكنه من أن يتفرغ  
للكتابة تمامًا . وكانت الكتابة معاناة خاصة بالنسبة  
له بسبب عدم تمكنه المطلق من أسرار اللغة  
الإنجليزية ، وقد جعله هذا أكثر اتهمًا من أن يعنى  
بحياته الأسرية والاجتماعية . ويصف الانتهاء من  
روايته ( نوسترومو ) بأن ( الأصدقاء هنتونى كأنما  
شفيت من مرض خبيث .. ) ..

كُون صداقات مع كتاب مهمين مثل ستيفن كريج  
وهنرى جيمس . ثم حملته الأعوام إلى أمريكا حيث  
ملت عام 1924 بنوبة قلبية .

كتب كونراد 13 رواية و28 قصة قصيرة ، وكان



الراوي دوماً في أغلبها بحاراً متقاعدًا . في قصته  
( لورد جيم - 1900 ) يصف لنا معاناة بحار يحاول  
جاهداً تصحيح خطأ ينم عن الجبن ارتكبه في شبابه  
في أثناء غرق مركب في البحار الشرقية . في قصته  
( العيل السرى - 1907 ) يحكى عن فوضى يعيش في  
لندن ، وقصته ( النصر - 1915 ) تدور في البحار  
الجنوبية ، أما قصته ( تحت عين غربية ) فتحكى  
عن تسلط روسيا في القرن التاسع عشر ، أما أشهر  
قصصه تقريباً فهي ( قلب الظلام - 1902 ) - التى بين  
يديك الآن - وتظهر رحلة رهبة في نهر إفريقيا ،  
هى فى الآن ذاته رحلة لمعرفة مدى فساد الإنسان  
وقسوته .. إن قلب الظلام هو فى الحقيقة نفوسنا .

لست متأكداً فى الحقيقة مما إذا كانت السينما قد قدمت  
هذه الرواية ، لكن هناك معالجة ناجحة قدمها ( نيكولاس  
روج ) للتلفزيون عام 1994 ، كما أن رائعة فرانسيس  
فورد كوبولا ( سفر الرؤية الآن - Apocalypse Now )  
تعتمد على فكرة الرواية بشكل كبير ، حتى إن النقاد

يقولون إنك لا تستطيع فهم الفيلم حق الفهم ما لم تقرأ  
هذه الرواية أولاً ، وإن كان الفيلم قد تحرر بلا حدود  
من النص الأصيل ، وجعل الأحداث تدور فى فيتنام بدلاً  
من الكونغو ، والقوات الأمريكية تلعب دور شركة  
العاج ، وقد قام ( مارلون براندو ) بدور ( كورتز ) .

و. (أحمد خالد توفيق)



## أشهر أعمال جوزيف كونراد

المنبوء 1896	عبد النار سببوس 1898
لورد جيم 1900	الشباب 1915
النصر 1915	الأسهم الذهبية 1919
الروفر 1923	بعض الذكريات
قلب الظلام 1902	(سيرة ذاتية) 1912
	العميل السرى 1907

### المصادر :

- من الأدب العالمى . د. عادل محمد عطا إلياس . قصص عالمية . الهيئة المصرية العامة للكتاب . 1988 ( عرض نقدى شائق لـ 25 عملاً من أهم أعمال الأدب العالمى ، مع ملخص لا بأس به ، ونبرة عن المؤلفين ) .
- شبكة الإنترنت .

1

تأرجحت ( نيلى ) - وهى مركب شراعى صغير - متجه إلى مرساه دون أن تهتز أشرعته ، وكانت الأمواج قد هدأت والريح قد استقرت تقريباً . ولم يعد أمامه إلا أن يقبع فى انتظار المد .

كانت نهاية نهر ( تيمز ) المتجهة للبحر تمتد أمامنا كأنما هى بداية طريق بحرى بلانهاية . وفى عرض البحر بدا كأن السماء والبر يمتزجان دونما نقطة التقاء .. وثمة غيمة تستريح فوق الشيطان المتجهة إلى البحر ، والهواء كان مظلماً فوق ( جريفسند ) يزداد كثافة فى كآبة جنائزية فوق أكبر وأعظم مدينة على وجه الأرض .

كان مدير الشركات هو قبطاننا ومضيفنا ، وقد راقبنا نحن الأربعة ظهره فى اتبهار وهو يقف على مقدمة السفينة ميمماً وجهه شطر البحر . ففي البحر



كله لم يكن ثمة ما هو أكثر (بحرية) منه .. كان هو القائد الذى يمثل الثقة مجسدة بالنسبة لبحارته ..

كان البحر يربط فيما بيننا ويوحد قلوبنا ويجعلنا نقبل ما يقوله كل منا .. كان المحامى رجلاً يتمتع بالكثير من المزايا ، لهذا كان قد استولى على الوسادة الوحيدة فى السفينة بالإضافة إلى النوم على الحشية الوحيدة فيها ، أما المحاسب فكان يحتفظ بصندوق من قطع الدومينو بالإضافة إلى ولعه بالنحت على العظام . أما (مارلو) فكان رجلاً نحيلًا شاحبًا له خدان غائسان وسمت يوحى بالتقشف .. وقد جلس مستندًا إلى الصارية ..

تأكد القائد من أن المرساة محكمة التثبيت ، من ثم عاد ليجلس بيننا .. تبادلنا بعض الكلمات الكسول ثم ساد الصمت .. ولسبب ما لم نبدأ اللعب بالدومينو .. لقد شعرنا بحاجة إلى التأمل وبلأنا لا نصلح إلا للحملقة الهلجنة فيما حولنا .. كفت السماء عبارة عن مساحة شاسعة من الضوء الذى لا يشوبه شيء ، والماء يلتصق فى هدوء ..

وأخيرًا باتحشاءة لا تدرك غاصت الشمس لأسفل ، واستحال لونها من الأبيض إلى الأحمر الذى لا يبعث دفئًا ولا شعاعًا من حوله ، وكأنها ستنتفضى فجأة ..

ونظرنا إلى المياه ليس فى ضوء اليوم الذى يأتى ويرحل للأبد ، ولكن فى ضوء (أغسطس) الذى يبعث الذكريات الدائمة .. فليس أسهل على رجل «اقتفى أثر البحر» - كما يقول التعبير الشهير - من أن يستحضر روح الماضى العظيمة على ضفاف نهر التيمز . فكم من رجال ونساء حمل هذا النهر .. لقد خدم كل هؤلاء الذين تفخر بهم الأمة .. من سير (فرانسيس دريك) حتى سير (جون فرانكلين) .. كلهم فرسان .. نبلاء البحر .. لقد حمل كل السفن التى يلمع اسمها كالجواهر فى ظلام الزمن . وتلك السفن التى لم ترجع قط .. أية عظمة لم تبحر عبر هذه المياه نحو غموض الأراضى المجهولة ! أحلام الرجال .. بذور الكومونويلث وأصول الإمبراطوريات .

غربت الشمس وبدأت الأضواء تلمع عبر الشط ..



وظهرت المدينة العملاقة من بعيد كأنها هي النذير ..  
وهج رهيب تحت النجوم ..

قال ( مارلو ) فجأة :

- « وهذا المكان أيضا .. كان من الأماكن المظلمة  
على الأرض .. »

كان هو الوحيد بيننا الذي لم يزل « يقتفى أثر  
البحر » .. لو كان هناك ما يعيبه فهو أنه لا يعبر عن  
طبقة جيدا .. إن أغلب البحارة يكونون من الطرقات الميل  
إلى البقاء حيث هو .. عقولهم من طرقات ( أبق في الدار )  
ودارهم هي سفينتهم .. ووطنهم هو البحر .. بالنسبة  
لهم تكفى جولة قصيرة على الشط لتخبرهم بسر  
القارة كلها .. وغالبًا ما يجدون هذا السر لا يستحق  
أن تعرفه ..

أما ( مارلو ) فكان مولعًا بالترحال .. وكان مولعًا  
بكل جديد .. ولم تبد ملاحظته مفاجأة ، فلم يكلف أحدنا  
نفسه بأن يعلق أو يهمهم .. كان يقول الآن :

- « كنت أفكر في أزمنة قديمة جدًا ، حين كان  
الرومان يأتون هنا .. منذ 1900 سنة .. منذ عهد ..  
ماذا تسمونهم ؟ الفرسان .. حين كان هناك ظلام .  
تخيل شعور قبطان .. ماذا تسمونها ؟ السفن الرومانية  
ذات المجاديف على الجوانب تعبر البحر المتوسط ،  
ثم يؤمر بأن يتجه شمالاً إلى بلاد الغال ... تخيله هنا  
في نهاية العالم أمام بحر بلون الرصاص وسماء بلون  
الدخان .. وسط الأخطار والمتوحشين ، ليس من  
لكثير ليؤكل ، وما من ماء يشرب إلا مياه ( التيمز ) .  
لا بد أن الرجال كانوا يموتون كالذباب هنا .. لكنه  
أجز مهمته .. أجزها بنجاح ، ومن دون تفكير كثير ..  
ربما جاء التفكير فيما بعد كي يبالغ في وصف ما مر  
به في حياته . لا بد أنه كان يحلم بتحقيق مهمته  
والترقية .. ربما كان له أصحاب مهمون في روما ،  
لو أنه ظل حياً .. »

وحرك كفه لتتجه نحو السماء ، فبدأ بسأقيه المطويتين  
تحتّه كأنه بوذا يعظ مرتدياً ثياباً أوروبية ومن دون  
زهرة اللوتس .



- «فكروا في أنه ما من واحد منا سيشعر بهذا ..  
ما يحمينا هنا هو الكفاءة .. لكن هؤلاء الشباب لم  
يكونوا استعماريين ، فقط كانوا غزاة .. لم يحتاجوا  
إلا للقوة الغاشمة .. أخذوا ما حصلوا عليه من أجل  
ما يجب أن يحصلوا عليه .. كانت أعمالهم مجرد  
سطو مصلح .. قتل على نطاق واسع .. أن تستلب  
الأرض من هؤلاء الذين لهم سحنات مختلفة أو  
أنوف أكثر تفلطحاً من أنوفنا . ليس هذا جميلاً  
لو فكرت فيه ..»

وكف عن الكلام .. بينما انزلت السنة الذهب في  
النهر .. لهب أخضر ولهب أحمر ولهب أبيض ..  
تبحث عن بعضها .. تتقاطع .. المرور في المدينة  
العظيمة يمضي في الليل البهيم فوق النهر الذي  
لا ينام . وجلسنا صامتين ، فلم يكن ثمة ما نعمله  
حتى ينتهي المد ، لكن الرجل قال بعد صمت طويل :  
«أعتقد أنكم تذكرون أنني كنت لفترة بحاراً في  
المياه العذبة ..»

وعرفنا أن قدرنا سماع قصة من قصص ( مارلو )  
المبهمة قبل أن يبدأ الجزر :

« لا أريد أن أضايكم بأن أحكي ما حدث لي بشكل  
شخصي .. » - هكذا بدأ وقد بدا في ملحوظته ذلك  
العيب الذي يعانى منه أكثر ساردى القصص ، الذين  
يجهلون ما يحب المستمعون سماعه - « لكن كي  
تعرفوا تأثير ذلك على ، لا بد من أن تعرفوا كيف  
وصلت هناك ، وما رأيت ، وكيف مضيت في ذلك  
النهر إلى حيث قابلت ذلك الشاب .. كانت أبعد نقاط  
ملاحظتي وخبراتي .. ولقد ألقت بالضوء على أفكارى ..  
وبرغم هذا كانت خبرة كئيبة مثيرة للأسى .. بل كانت  
مبهمة لكنها ألقت بالضوء ..»

« كنت وقتها قد عدت إلى لندن بعد رحلة في المحيط  
الهندي وبحار الصين طالت ستة أعوام ، وكنت لزورك  
يا شباب في دياركم وأعطاكم في أعمالكم .. وبعد فترة  
تعبت من الراحة ، وبدأت أبحث عن سفينة .. لكن  
السفن لم تعرنى اهتماماً ..»



«حين كنت شاباً كنت مولعاً بالخرائط .. كنت أحملق  
بالساعات في خارطة أمريكا الجنوبية أو إفريقيا ..  
وأنسى نفسي في لذة الاستكشاف . وكانت هناك أماكن  
فارغة كثيرة على الأرض في ذلك الوقت ، فكنت  
أضع إصبعي على الخارطة وأقول لنفسي : حين أكبر  
سأذهب هناك ..»

القطب الشمالي كان من هذه الأماكن .. حسن ..  
لم أزره قط ولا أتوى هذا الآن .. حلمت كذلك بأماكن  
عند خط الاستواء وسواه ، وبعض هذه الأماكن  
زرتها .. لكن بقي أكبرها وأكثرها فراغاً .. حقاً في  
ذلك الوقت كان لم يعد مكاناً فارغاً .. لقد امتلأ منذ  
صباى بالأنهار والأسماء .. لم يعد مكاناً يحلم الطفل  
به .. صار مكاناً من الظلمات(\*) ..

لكن كان به نهر .. نهر قوى كبير يمكنكم أن تروه  
على الخارطة كأنه أفعى عملاقة مفرودة .. رأسها في  
البحر وذيلها ضائع وسط الأرض .. هذا النهر كان

(\*) أحداث الرواية التالية مستندة في الكونفوز البلجيكية .. لكن كلام  
الراوي أقرب إلى العوم والإبهام ..

يفتتنى وكنت لفت ألامه كلتنى طائر أحمر جاهل يقف  
أمام ثعبان عملاق .. ثم تذكرت أن هناك شركة تجارية  
كبيرة تعمل على هذا النهر .. قلت لنفسي إنهم بالتأكيد  
يملكون سفناً عملاقة .. قوارب بخارية ! لم لا أطلب أن  
أقود أحدها ؟

كنت أمضي ساعاتي في ( فليت ستريت ) لكنني لم  
أستطع طرد الفكرة .. لقد خلقتني الأفعى ..

تعرفون أنني لست هذا الطراز من الرجال .. أحب  
أن أفعل ما أريد بنفسي دون معونة من أحد ، لكن  
كان لي أصدقاء يمكن أن يساعدوني ، وقد استعنت  
بهم . لكنهم لم يسدوا لي عوناً .. عندها اضطررت  
إلى الاستعانة بالنساء ! تصوروا ! أنا ألجأ إلى  
النساء كي يساعدنني ! كانت لي عمة .. امرأة رقيقة  
متحمسة ، وقد كتبت لي تقول :

- « عزيزي .. أنا أعرف زوجة رجل مهم جداً في  
الإدارة .. وله نفوذ قوى هناك .. »



كانت مصممة على أن تبذل جهدها كي أعين ربانا  
على قارب بخارى فى النهر .. ما دمت أرغب فى  
هذا .

وكانت الشركة تبحث عن ربان بعد ما قتل أحد  
ربابيينها فى مشاجرة مع الأهلى المحليين ، وكانت تلك  
فرصتى .. وفيما بعد - بعد أشهر - استرددت ما تبقى  
من جنته وفهمت أن سبب المشاجرة كان خلافاً بصدد  
الدجاج . نعم .. من أجل دجاجتين سوداوين .. لقد  
حسب القبطان أنه خدع فى الصفقة .. كان داتمركيًا  
اسمه ( فريسليفين ) ، وهكذا افتاد زعيم القوم إلى  
الشاطئ وأوسعه ضرباً .. يجب أن أقول هنا إن  
( فريسليفين ) كان من ألطف وأرق القوم الذين عرفتهم  
فى حياتى ، لكن يبدو أنه أراد أن يبدو حترماً بشكل ما ..  
لهذا أوسع للزنجى العجوز ضرباً بلا رحمة ، بينما قومه  
يرقبونه .. حتى فقد أحد الشباب أعصايه - وكان ابن  
الزعيم - وهو يسمع صراخ أبيه ، لذا أخرج رمح  
وقذفه ليستقر بسهولة بين لوحى كتفى القبطان ..

فر الزوج إلى الغابة بينما فر القارب البخارى  
تحت إمرة المهندس ، ومن وقتها لم يكلف أحد نفسه  
مشقة استعادة بقايا القبطان ، حتى جئت أنا مكانه  
ولم أستطع تجاهل الأمر .. لقد كان العشب الآن  
ينمو من بين ضلوعه .. كل العظام كانت هناك ..

أما القرية فكانت خالية تماماً .. هجرها الرجال  
والنساء الذين استبد بهم الهلع . ولا أدري ما صار  
إليه أمر الدجاجتين . على كل حال حصلت على  
الوظيفة قبل أن أمل فى الظفر بها .

خلال 48 ساعة كنت أتوجه لمقابلة مستخدمى كى  
لوقع الأوراق وأتل الوظيفة . لم أجد عسراً فى العثور  
على الشركة لأنها كانت أكبر شىء فى المدينة ، وكل  
من ألقاه كان مليئاً بها .. كانوا على وشك امتلاك  
إمبراطورية وراء البحار .

شارع ضيق مهجور فى الظلال ، وبيوت عالية  
نوافذها لا تحصى عليها ستائر من الطراز الفينيسى ..



صمت الموت .. دخلت أحد هذه الشقوق ، وصعدت  
 في درج ممسوح ، ودخلت أول باب قابلني .. كانت  
 هناك امرأتان إحداهما بدينة والأخرى نحيلة ، تجلسان  
 على مقاعد من قش وتحيطان للصوف الأسود . نهضت  
 النحيلة ومشيت نحوي وهي مستمرة في الحياكة  
 وعيناها لأسفل ، حتى إبتني حاولت للتحي عن طريقها  
 كما تفعل أنت مع من يمشي في أثناء النوم .

اقتادتنى إلى قاعة انتظار ، بها منضدة في الوسط  
 وخارطة في ركن للقاعة عليها كل لون قوس القزح .  
 بقع حمراء وبقع زرقاء وبقع بنفسجية تخبرنا أين يشرب  
 المستكشفون للشجعلن لخب للنصر . لكنى لم أكن ذاهبا  
 إلى مكان من تلك الأماكن .. كنت أقصد الأماكن صفراء  
 اللون . إلى حيث الصمت والموت .. حيث النهر  
 هناك فائن قاتل كالشعبان .. إبتني في المحراب .

أرى كتلة من البداة الشاحبة في عباءة ، وأعرف أن  
 هذا هو الرجل العظيم نفسه .. صافحتني وغغم بصوت  
 خفيض على قدر ما أتذكر ، وقد راقبت له فرنسييتي  
 فتمنى لى ( بون فوياج ) .



أرى كتلة من البداة الشاحبة في عباءة ،  
 وأعرف أن هذا هو الرجل العظيم نفسه



ثم وجت نفسي من جديد في غرفة الانتظار مع  
السكرتيرة .. جعلتني أوقع على تعهد بأشياء ضمنها  
ألا أكشف أسرار التجارة ، وأنا لا أنتوى هذا على كل  
حال .

بدأت أشعر بالتوتر ، فأنتم تعرفون أنني لا أرتاح  
كثيراً لهذه الطقوس ، كما أن الجو العام كان يوحى  
بالتطير . كأنما كنت في صدد عمل تأمرى ما ، ومن  
حسن حظى أنني خرجت منه .

جلست في الخارج مع المرأتين بينما للشبلب يأتون  
ويرحلون .. فكانتا تلقيان عليهم وعلى نفس النظرة  
من الحكمة غير المبالية .. كأنما تعرفان كل شيء  
عنى وعنهم .. وبعد هذا حتى وأنا بعيد جداً عنهما  
في الظلام ، لم أكف عن التفكير في منظرهما وهما  
جالستان تحرسان باب الظلام ، تغزلان الصوف الأسود ..  
وتتفحصان القادمين المبهجين بعينين عجوزتين  
لا مباليتين .. رباه ! إن أكثر من نصف من نظرنا  
إليهم لم يعولوا قط ..

هناك كذلك زيارة للطبيب .. « إجراء روتينى  
بسيط » .. كذا أخبرتني السكرتيرة كأنما تشاركني  
آلامى ، ثم جاء شاب يخفض قبعة فوق حاجب عينه  
الأيسر .. موظف على ما أظن ، لأن هناك موظفين  
بالتأكيد برغم أن المنزل كان صموتاً كمنزل فى مدينة  
لموتى . جاء وأخبرنى . كان مشوش الشلب وثمة بقع  
حبر على كمي سترته ونقشه تذكرك بطرف حذاء قديم ..

تحسس الطبيب المسن نبضى وهو يفكر فى شيء  
آخر كما هو واضح وغمغم :

- « جميل .. جميل بالنسبة لهنالك .. »

ثم بلهجة ملحة سألتنى عما إذا كنت أسمح له بقياس  
رأسى .. وافقت فى دهشة ، فأخرج مقاييس وراح  
يقيس محيط رأسى من الأمام والخلف .. وقال :

- « من أجل العظم أقيس يوماً جمالجم هؤلاء للذهابين  
هناك .. »

- « والعادون كذلك ؟ »



- « لا أراهم ثانية أبدا .. ثم إن التغيرات تحدث  
بالداخل كما تعلم .. إذن أنت ذاهب هناك ؟ هذا مثير .. »

وابتسم كأنما قال نكتة لا بأس بها . وتفحصنى ثم  
عاد يسألنى :

- « هل هناك حالات جنون فى أسرتك ؟ »

سألته فى ضيق :

- « هل هذا السؤال من أجل العلم كذلك ؟ »

- « سيكون كذلك .. إن لدى نظرية أتمنى منكم  
أيها السادة الزاهيون إلى هناك أن تساعدونى على  
إثباتها .. هذا هو دورى فى المنفعة التى سيجنيها  
وطنى .. الثروة الوحيدة التى أتركها للآخرين ..  
وأنت أول إنجليزى أفحصه .. »

قلت له إننى لست بالإنجليزى التقليدى ، ولو كنت  
كذلك ما تحدثت معه ..

- « ليكن .. ابتعد عن التوتر كما تبتعد عن الشمس ..  
فى المناطق الحارة يجب على المرء أن يتجنب الانفعال .. »

أديوه .. آه .. كيف تقولونها بالإنجليزية ؟ آه .. إلى  
اللقاء .. أديوه .. »

كان قد بقى شىء واحد لقطه .. هو أن لودع عمى ..  
وجدتها شاعرة بالنصر ، وشربت معها قُدحا من  
الشاي .. آخر قدح محترم من الشاي أشربه لمدة أيام  
طويلة .. وجلسنا جلسة طويلة حكّت لى فيها كيف أنها  
أخبرت زوجة نيك المسنول أننى مخلوق خارق لست بشئ ،  
وقطعة من الحظ الحسن للشركة .. رباه ! وعرفت أننى  
سأكون مسئولا عن قارب بخارى ، وبالإضافة لهذا  
سألعب دورا شبيها بدور المبشرين .. أنت تعرف  
هذا .. إن هناك الكثير من هذا السخف فى الصحف ،  
والمرأة الطيبة لا تملك إلا أن تفقد صوابها لدى  
سماع هذا .. لقد راحت تكلمنى عن « فطام الملايين  
من أسلوب الحياة المتوحش الذى يعيشون به » ..  
وأقسم إننى حاولت التلميح لها أن غرض الشركة  
هو الربح لا أكثر ..

غريب أن ترى كم أن النساء لا يملكن أى إحساس



بالحقائق .. إنهن يعشن في عوالمهن الخاصة ..  
عوالم لم توجد قط ولن توجد ، لكنها جميلة جداً ..  
وهي حقيقة قبلناها معشر الرجال ورضينا بها منذ  
فجر الخليقة ..

بعد هذا عانقتني وأوصتني أن أرتدى فاتلة تحت  
ثيابي ، وأكتب لها دوماً ، ورحلت ..

في الشارع - ولا أعرف سبب هذا - داهمني شعور  
غريب بأنني دجال .. من الغريب أنني كنت قد اعتدت  
أن أرحل إلى أي مكان في العالم خلال أربع وعشرين  
ساعة .. دون أن أعير ذلك اهتماماً أكثر مما يعيره  
إنسان يرغب في عبور الشارع . وبرغم هذا انتابني  
بعض التوتر قبل هذا الأمر المعتاد بالنسبة لي .. خير  
ما أوضح به كلامي أنني شعرت لثانية أو اثنتين بأنني  
لست ذاهباً إلى قلب قارة بل إلى قلب الأرض .

رحلت في سفينة فرنسية لم تكف عن التوقف في  
كل مرفأً تقابله لتتزل الجنود .. كنت أرمق الساحل ..  
إن مشاهدة أي ساحل ينزلق جوار السفينة هو أقرب إلى  
التأمل في لغز .. ها هو ذا أملك .. بيتسم أو يقطب ..

يدعوك .. عظيماً .. حقيراً .. منفراً .. لكن هذا  
الساحل كان بلا ملامح .. كأنه مازال في مرحلة  
الخلق . ترى حافة دغل عملاق أخضر داكن حتى  
يقرب من السواد .. تحيط به أهداب موج أبيض  
ومن بعيد بحر أزرق اختفى ألقيه تحت ضباب  
كثيف . الشمس كانت شرسة والأرض توشك أن  
تسيل بالبخار . مستعمرات هنالك من قرون ، لكنها  
ما زالت أقرب إلى رعوس دبابيس وسط الطبيعة التي  
تحيط بها . وفي كل لحظة تشعر بأن الساحل هو  
ذاته ، وكأننا لم نتحرك ، لكننا مررنا بأماكن لها  
أسماء مثل ( جران باسام ) .. ( بوبو الصغير ) ..  
كأنما هي أسماء تنتمي إلى كوميديا فارس سخيفة .

كنت وحيداً وسط هؤلاء الذين لا أجد ما يربطني  
بهم .. والبحر الزيتي فاتر الهمة .. وكأية الساحل ..  
كل هذا أبقتني بعيداً عن طباع الأشياء .. ولكن صوت  
الموج كان له تأثير إيجابي على كآته كلام أخ لي ..  
ومن حين لآخر كان قارب يأتي من الشاطئ ليعيدني



إلى الحقيقة لحظيًا .. يقوده زنوج .. يمكنك أن ترى  
من على بعد بياض عيونهم . وهم يغنون ويصيحون  
وأجسادهم مغطاة بالعرق . وجوههم كأقنعة غريبة ..  
لكن كانت فيهم حيوية طبيعية وصادقة مثلها مثل  
أمواج البحر على ساحلهم .. وكنت أشعر براحة  
عظمى لرؤيتهم .. وللحظات كنت أشعر بأننى أتنمى  
لعالم من الحقائق المباشرة ..

أذكر ذات مرة دنونا فيها من سفينة حربية عالقة  
عند الساحل . يبدو أن الفرنسيين خاضوا إحدى حروبهم  
هناك .. وكانت مدافعها تتلوى من جوانب جسم السفينة ،  
بينما الموج لكسول يرفعها وينزلها .. هناك فى خواء  
الأرض والبحر والسماء كنت هى .. تطلق مدافعها نحو  
قارة كاملة لكن شيئاً لا يحدث .. لا شيء يمكن أن  
يحدث .. ثمة نوع من الكآبة المضحكة السخيفة فى  
المشهد .. وجاعنى من يخبرنى أن هناك مصكراً للسكان  
المحليين فى مكان ما هنا .. كان يسميهم ( الأعداء ) ..

زرنا أمكن أخرى لها أسماء سخيفة ، حيث تمضى

رقصة الموت والتجارة فى مناخ أرضى ساكن .. كل  
هذا على الساحل عديم الشكل الذى تحيط به الأمواج ،  
وكان الطبيعة ذاتها أرادت أن تطرد المقتحمين . لم  
نن قط إلى حد أن نحظى بقطباغ ما ، لكن ذلك الإحساس  
بالعجب الغامض كان ينمو داخلى .. كأنه حج مرهق  
بين الكوابيس .

مر نحو ثلاثين يوماً قبل أن لرى ثغر النهر الكبير ..  
ورسونا فى مرفأ حكومى ، لكن عملى لن يبدأ قبل أن  
نتوغل ملئى ميل بالداخل .

بدأت رحلتى على قارب بخارى صغير ، قائده  
سويدي ، وقد عرف أننى بحار فدعانى معه إلى ظهر  
القارب .. رجل نكد المزاج شاحب نحيل يعرج  
قليلاً .. وإذ تركنا المرفأ البائس ، نظر باستهانة إلى  
الشاطئ ، وقال :

- « هل عشت هنا ؟ »

فقلت :

- « نعم .. »



- «شباب لطيفو المعشر موظفو الحكومة هؤلاء ..  
أليس كذلك ؟»

ثم استطرد في إنجليزية جيدة لكن بلهجة مريرة :  
- «من الغريب أن تفكر فيما يفعله بعض الناس  
من أجل الفرائكات .. منذ أيام اصطحبت رجلاً إلى  
هنا .. فشنق نفسه .. كان سويدياً هو الآخر ..»

صحت :

- «شنق نفسه ؟ لماذا بحق السماء ؟»

راح يراقب مسارنا بعين واحدة حذرة وقال :  
- «من يدري ؟ ربما كنت للشمس أكثر من تحمله ..  
وربما البلد نفسه ..»

في النهاية ظهر لنا منحدر صخري شاهق وبيوت  
على التل .. كان هناك عدد هائل من السود العراة  
يعملون بلا توقف وثمة رصيف ميناء يبرز في البحر ،  
وكانت الشمس تغرق كل هذا بضوء يعمي الأبصار .

قال لي القبطان السويدي :  
- «هناك محطة شركتك ١٠»

وأشار إلى ثلاثة مبان خشبية لها سميت التكنات  
العسكرية ..

- «سأرسل حاجياتك .. أربعة صناديق .. أليس  
كذلك ؟ وداعاً ..»

وجدت ممراً يقود إلى أعلى التل ، وعلى جانبه  
كانت عربة سكة حديد صغيرة مقلوبة وعجلاتها في  
الهواء .. كأنها جثة حيوان ما .. ومررت بمزيد من  
الآلات المتحللة المتعفنة .. دوى صوت نفيير إلى  
يمينى فركض الزنوج .. ثم تصاعد بعض البخار من  
المنحدر ، وكان هذا كل شيء .. كانوا يبنون خطأ  
حديثاً جديداً ..

أطرافهم كأنما هي عقد في حبل ، وثمة ياقة  
حديبية حول عنق كل منهم .. وكلهم مربوط إلى  
سلسلة طويلة . هؤلاء للرجال لا يمكن أن تدعوهم



أعداء ، وإتباعهم مجرمون .. وقد وصل القاتلون  
الغاضب إليهم كأنه قبيلة منفجرة . كل صدورهم  
تلهث معاً ، وطاقات أنوفهم ترتجف .. مروا بى على  
بعد ستة أقدام دون أن ينظروا لى . بئس اللامبالاة  
الكاملة للمتوحشين التعساء .. ومن وراء هذا اللحم  
يمشى واحد من الذين تم إصلاحهم ، يحمل بندقيته  
ويلبس سترة عسكرية تنقص أحد أزرارها ، فلما  
رأى رجلاً أبيض عن بعد ، رفع البندقية إلى كتفه  
متظاهراً باليقظة .. كان هذا على سبيل الحذر ، لأن  
كل الرجال البيض يتشابهون عن بعد ..

بدلاً من أن أصعد لأعلى نزلت نحو اليسار .. كنت  
أريد أن تبعد مجموعة المصفدين هذه عن بصرى  
قبل أن أتسلق .. أنتم تعرفون أننى لست رقيقاً .. لقد  
اضطرت إلى أن أضرب وأقاتل وأهاجم أحياناً ، دون  
أن أحسب للعواقب .. لقد رأيت شيطان الغف وشيطان  
الشهوة وشيطان الطمع ، لكنها كانت شياطين قوية  
حمراء العيون ، لكننى إذ وقفت هناك شعرت بأننى

أواجه شيطان القسوة الرخو ضعيف الشخصية .. كم  
هو قوى فى غوايته كذلك .. وكنت سأكتشف هذا بعد  
شهور عديدة وعلى بعد آلاف الأميال .. وكان على  
أن أنتظر حتى يمر هؤلاء ..

كنت أنتظر فى وهدة لا تتجاوز ندبة فى التل ..  
واكتشفت أن أكثر أبواب الصرف المستوردة للمستعمرة  
قد تم تكديسها هناك ، وكلها محطمة . وهنا وقعت  
عيناى على إحدى حفر الجحيم .. كانت هناك أشكال  
سوداء ترفد فيها .. تجلس .. تستند إلى جذوع  
الأشجار . فى كل أوضاع الألم الممكنة .. كل  
أوضاع العزلة والقنوط .

وانفجر لغم آخر من بعيد تبعه اهتزاز التربة تحت  
قدمى .. كان العمل يمضى .. العمل ! وهذا هو  
المكن الذى كان يأتى إليه المصابون كى يموتوا ..

كانوا يموتون ببطء .. هذا كان واضحاً تماماً ..  
لم يكونوا أعداء ولا مجرمين .. لم يكونوا شيئاً يمت  
للأرض الآن ، بل مجرد ظلال سوداء للجوع والسقم ،

يرقدون ذاهلين في الظلام الأخضر .. جاعوا بهم من  
كل أرجاء الساحل ، ليطعموهم طعاماً لم يأنفوه ،  
فمرضوا ولم يعودوا نوى نفع .. لذا سمحوا لهم  
بحرية الزحف والموت هنا ..

نظرت إلى الفتى الرائد ألقى .. كفت عيناه متسعيتين  
خاليتين أقرب إلى العمى .. وكانت سنه أقرب إلى  
الصبا .. لم أجد ما أقدمه له إلا واحدة من البسكويت  
السويدي الممتاز الذي وجدته في جيبى .. انغلقت  
الأنامل على قطعة البسكويت دون أى تعبير فى  
العينين . ومن حوله كان إخوته فى الأكم يتناثرون  
متخذين كل وضع ممكن يعبر عن الأكم كأنها لوحة  
قديمة تصور المذابح . وإذا وقفت أنظر فى رعب ،  
نهض أحد هذه المخلوقات على أربع وزحف نحو  
النهر كى يشرب .. ثم جلس قليلاً وترك ذفته تهوى  
فوق صدره .

لم أرد البقاء أكثر ، فهرعت نحو المحطة ..  
قابلت هناك رجلاً أبيض أنيقاً إلى حد أننى للحظة

حسبته رؤيا ، لأننى لم أتوقع كل هذه الأناقة فى  
مكان كهذا .. ياقة عالية منشأة وسروال بلون الثلج  
وكمائن أبيضان وربطة عنق نظيفة .. لاقبعة .. شعر  
مصفى بعناية بالزيت .

صافحت هذه المعجزة وعرفت أنه كبير محاسبى  
الشركة ، وأنه خرج لاستنشاق بعض الهواء النقى ..  
ما كنت لأتذكر شيئاً عن هذا الرجل لولا أننى احترمته ..  
نعم .. احترمت حذاءه اللامع وياقته المنشأة البيضاء ..  
كان مظهره كأنه دمية لدى كوافير ..

فيما عدا هذا كان كل شىء فى المحطة فى  
فوضى .. الزنوج يتون ويرحلون .. نهر من البضائع  
والأقطان والخرز تدخل قلب الظلام ، ويخرج منه كنز  
ثمين من العاج .

اضطرت لأن أنتظر فى المحطة عشرة أيام ..  
وهى دهر ..

كنت أحياناً أذهب إلى مكتب المحاسب ، وهو مبنى



من ألواح خشبية تم تثبيتها بشكل سيئ إلى حد أنك ترى على جسد الرجل شرائط من ضوء الشمس من رأسه حتى كعبيه . بالإضافة لهذا كان الطقس حاراً والذباب الصالح ينز في وحشية ، ولا يلدغ بل يطعن .

ذات يوم قال لي دون أن يرفع رأسه :

- « في داخل الساحل ، ستقابل مستر ( كورتز ) من دون شك .. »

سألته عن يكون ( كورتز ) هذا ، فقال لي إنه عميل من الدرجة الأولى .. وإذا رأى خيبة أمل من تفاهة المعلومة ، قال وهو يضع قلمه :

- « هو شخص مرموق جداً .. »

وبمزيد من الأسئلة عرفت أن مستر ( كورتز ) مسئول عن مركز تجارة .. مركز مهم جداً .. في بلد العاج الحقيقي .. يرسل لنا من العاج أكثر مما يرسله الآخرون مجتمعين ..

وعاد يكتب وعاد الذباب ينز ..

فجأة سمعنا لغطاً من الأصوات .. لقد وصلت قافلة بالخارج فقال :

- « حين يكون عليك أن تجري حسابات صحيحة ، فإنك تجد نفسك كارهاً لهؤلاء المتوحشين .. »

وفكر قليلاً ثم قال وهو يرمقني بعينين جاحظتين :

- « حين تقابل مستر ( كورتز ) ، قل له على لساني إن كل شيء مرض تماماً .. لا أحب أن أكتب له لأنه مع مبعوثينا يصعب أن تعرف في أية يد سيقع الخطاب .. إن ( كورتز ) سيصل إلى بعيد جداً .. سيصير مهماً في الإدارة يوماً ما .. إن من هم في القمة في أوروبا - كما تعلم - يريدونه كذلك .. »

في اليوم التالي تركت المحطة في قافلة من ستين رجلاً .. لأبدأ رحلة ملقني ميل ..

لاجنوى من أن أحكى للتفصيل .. ممرات وممرات .. ووحدة .. ووحدة .. لا أكواخ .. لقد رحل الناس منذ زمن بعيد .. نمشي بين عشرات القرى الخالية ..

يومًا بعد يوم أسمع صوت السنتين زوجًا من الأقدام  
للحافية خلفي ، يحمل كل منها حملاً ثقيلاً .. نصكر ..  
نطهو .. ننام .. من حين لآخر ترى زنجياً في الأصفاد  
ميتاً وسط الأعشاب وجواره إناء ماء فارغ ..

ذات مرة قابلنا رجلاً أبيض يلبس سترة عسكرية  
غير مزررة ، يحرسه مجموعة من الزنباريين  
النحيلين .. كان ودوداً جداً ولا داعي لأن أقول ثملاً  
كذلك .. كان يبحث عن موقع صيانة الطرق ، وأنا لم  
أر طريقاً ولا صيانة .. ما لم يكن الزنجى الذى  
تعثرت فى جثته على بعد ميلين ، وثقب رصاصة فى  
جبهته ، يمثل اتجاهًا دائماً نحو التقدم .

كان معى مرافق أبيض أيضاً ، وهو ليس سيئاً إلا  
أنه بدين ولديه عادة مثيرة للحنق هى أنه يفقد وعيه  
فى الحر ، حيث لا يوجد ظل ولا ماء .. من الأشياء  
التي تضايق أن ترفع معطفك كالمظلة فوق رأس  
رجل لتحميه من الشمس .. وقد سألته مرة عما  
يقصده من المجيء هنا .. فقال بازدياء :

« المال طبعاً .. ماذا تحسب ؟ »

فلما أصابته الحمى اضطررنا إلى حمله فى أرجوحة ..  
ولما كان يزن ستين حجراً فقد كان على أن أخوض  
معارك مع الحمالين .. كانوا على وشك التمرد ..  
وقد ألقيت عليهم خطبة بالإنجليزية مع إشارات بيدي  
فهما الجميع ..

وفى اليوم التالى وجدت كل شيء ملقى وسط  
الأشجار : الرجل .. الأرجوحة .. كان صاحبي ثائراً  
ويريد منى أن أقتل شخصاً ما ، لكنى لم أجد حملاً  
واحداً أمامى .. وتذكرت ما قاله الطبيب عن أن البلد  
يغير عقول الناس .. لقد بدأت أتحول إلى ظاهرة  
مثيرة للاهتمام علمياً ..

فى اليوم الخامس عشر رأيت النهر من جديد ..  
ورأيت محطة الشركة التى تحيط بها الأشجار الكثيفة  
من كل صوب إلا من جهة واحدة صارت هى  
البوابة .. وقال لى شاب ضخم ما إن عرف من أنا ،  
بكثير من الاستطراء ، إن قارىبى البخارى هو فى قاع  
النهر الآن ..



شعرت كمن ضربه البرق .. ماذا ؟ كيف ؟ لماذا ؟

لكن كل شيء على ما يرام .. لقد تصرف الكل جيداً ، والمدير نفسه كان هناك .. يجب أن تذهب لتقابل المدير العام شخصياً فهو في الانتظار !

لم أفهم معنى هذا وقتها .. أعتقد أنني أفهم الآن ولكنني لست متأكداً .. حين أفكر في الأمر أجده غيباً .. لقد غرق القارب .. لقد انطلقوا متعجلين إلى النهر منذ يومين والمدير معهم .. وتحت قيادة ربان متطوع ، لكنهم مزقوا قاع القارب على الصخور .. وغرق قرب الضفة الجنوبية . سألت نفسي عما أفعله هنا ما دام قاربي قد غرق .. والحقيقة أنني احتجت إلى وقت كبير حتى أستخرج قاربي من الماء ، واستغرقت عملية الإصلاح عدة أشهر .

كان لقائي الأول بالمدير غريباً .. لم يطلب مني الجلوس بعد العشرين ميلاً التي مشيتها .. كان شخصاً عادياً في كلامه وشكله وطباعه .. لكن كان هناك شيء مختلف ما .. ربما ابتسامة .. لا ليست

ابتسامة .. كانت تتبع كلماته للحظة خاطفة كأنها ختم يعطى لأبسط الكلمات مغزى غامضاً . كان مطاعاً لكنه لا يوحى بالحب ولا بالكراهة .. كان يوحى بعدم الارتياح ! هكذا ! عدم الارتياح .. لا شيء سوى هذا .. لم يكن ذا تعظيم مرموق ولا ذكاء .. لقد ظفر بمنصبه ربما لأنه لم يمرض قط .. والصحة هنا نوع من القوة . وكان يقول للمرضى الذين يملئون المحطة حوله : الرجال الذين يأتون هنا ، يجب ألا تكون لهم أحشاء ! بدأ يتكلم ما إن رأيته ، ولم يطق الانتظار .. إن محطات النهر يجب أن تشفى من الاختناق .. هناك رحلات تأخرت ولا أحد يعرف من مات ومن بقي حياً .. لم يبال بتفسيراتي ، وراح يعبث بعصا من الشمع ويردد : « الموقف خطير .. خطير .. »

هناك إشاعات أن إحدى المحطات في خطر ، ورئيسها مستر ( كورتز ) مريض .. أمل ألا يكون هذا حقيقة .. كنت متعباً وقلت لنفسي : فليشئ ( كورتز ) هذا .. لذا قاطعته قائلاً إنني سمعت عن ( كورتز ) فقال :

« آه ! إذن هم يتكلمون عن ( كورتز ) هناك .. »

وأكد لي أن ( كورتز ) رجل غير عادي .. رجل استثنائي شديد الأهمية للشركة .. وغادرت الكوخ وأنا ألغنه في سري ..

في الأيام التالية حاولت ألا أنظر إلى المحطة كي أُنسى ما يتعلق بها ، وإن شعرت بأن هذه كلها مسرحية عيشية .. لفظة ( عاج ) تتردد في الهواء .. تهمس .. توقع .. ربما تعتقد أنهم يقولونها في صلاتهم .. بالله عليك أنا لم أر ما هو أكثر زيفاً في العالم كله .. إن لفظة ( عاج ) تتردد كأنها مطلق مثل ( الصدق ) و ( الكذب ) .. وكل هؤلاء الرجال يتظاهرون بأنهم حقيقيون صادقون ، لكن لا أحد يعبأ بشيء .. ثمة مناخ عام من التظاهر والادعاء هنا ، ولا شيء يهمهم حقاً إلا النسب المنوية التي سيحصلون عليها من تجارة العاج .

سألت أحد الرجال :

« من هو المستر ( كورتز ) ؟ »

قال بنبرة حاسمة :

« هو رئيس المحطة الداخلية .. »

قلت له ضاحكاً :

« أنا ممتن لك على هذا .. »

صمت قليلاً ثم قال :

« إنه معجزة .. إنه رسول العطف والعزم والتقدم .. »  
« وتحول كلامه إلى لهجة خطابية - « كنا مكلفين من أوروبا بمهمة ، وكنا بحاجة إلى ذكاء شامخ وهدف موحد وتعاطف لا حد له .. ثم يجيء إلينا ذلك الرجل .. كيان متفرد كما ستعرف حتماً .. »  
« ولماذا سأعرف حتماً ؟ »

سألته في دهشة لكنه لم يولني اهتماماً ..

« اليوم هو رئيس أفضل محطة .. غذا يكون مساعد المدير .. بعد عامين .. لكنني أعرف أنك تتوقع ما سيكونه بعد عامين .. أنت من نفس الطراز .. القوم الذين أرسلوك هم الذين أهدوه إلينا .. »

هنا بدأت أفهم .. إن نفوذ عملي للعزيزة وعلاقتها ،



أحدث تأثيراً عجيباً هنا . نظرت للرجل وشعرت أن  
بوسعى أن أغرس سبابتى فى لحمه ، وأنا أقسم إننى  
ما كنت لأجد شيئاً داخله إلا القذارة .. واضح أنه كان  
يتمنى أن يكون مساعد المدير وهو قلق جداً بصدد  
قدوم ( كورتز ) ..

كان يثرثر ويثرثر وأنا أصغى وقد أرحت كفى إلى  
بقايا القارب المهشم ، أراقد كأنه جثة حيوان نهري  
ميت .. ورحت أنظر إلى الظلام المحيط بالغاية من  
بعيد ..

من نحن ؟ وماذا أتى بنا هنا ؟ هل نستطيع التعامل  
مع هذا الشيء العملاق الصموت وربما الأخرس ؟  
أعرف أن فيه عاجاً وفيه ( كورتز ) كذلك .. لكم  
سمعت عنه لكن هذا لم يزدنى عنفاً .. لقد آمنت به  
فقط بنفس الدرجة التى تصدق بها أن هناك كائنات  
حية على كوكب المريخ ..

أنتم تعرفون كم أكره الكذب .. ليس لأننى طاهر  
الذيل ، ولكن لأن للكذب طعناً عفاً كريهاً يذكرنى

بوهنا وضعفنا .. يذكرنى بموتانا .. وقد كذبت كثيراً  
على ذلك الرجل كى أقنعه بنفوذى القوى فى  
أوروبا .. وبالقوى المخيفة التى ورائى ، بينما لم  
يكن ورائى شيء إلا القارب العجوز الذى نقوم  
بإصلاحه ..

لم تكن علاقتى بـ ( كورتز ) أكثر من علاقتكم أنتم  
به ، وأنا أحكى لكم عنه .. هل ترونه ؟ هل ترون  
القصة ؟ هل ترون أى شيء ؟ كأننى أحكى لكم  
حلماً . وهى محاولة فاشلة لأنك مهما حكيت الحلم  
لن تستطيع أن تنقل الإحساس به .. أن تنقل  
الإحسان باللامعقولية التى هى روح الحلم ..

كان العمل متوقفاً فى القارب البخارى بسبب  
مسامير البرشام .. لقد كان هناك الكثير منها على  
المسحل ، وكنت تدوس فى كل لحظة على عشرات  
منها على الرمال ، لكن ما من مسمار منها كان  
موجوداً حيث تمس الحاجة إليه هنا .. كنا نرسل  
الزئوج إلى المرفأ نسألهم أن يرسلوا لنا مسامير ،

وكانوا يعودون حاملين كل شيء إلا ما نريد .. برغم  
أن ثلاثة رجال يقدرّون على جلب كل احتياجاتنا .  
وقد قلت للرجل إن العمل متوقف بسبب مسامير  
البرشام ، وسوف يتضايق مستر ( كورتز ) كثيراً لو  
لم يجلبوا لي ما أريد .. فقط لو عرف بالأمر ..

كنت أحب القارب البخاري بشدة .. وقد بذلت في  
إصلاحه جهداً كبيراً جعلني أتعلق به .. لقد منحني  
ساعات من السكوى والنسيان ومعرفة ما يجب أن  
أفعله .. أنا لا أحب العمل .. وأفضل أن أسترخي  
في كسل وأفكر في الأشياء الجميلة التي يجب أن  
تصل .. لا يوجد رجل يحب العمل ، لكننا نحب  
ما يمنحنا إياه العمل من اكتشاف لذواتنا ..  
لحقيقتنا ..

لكني كنت قد بدأت أكف عن القلق بصدد مسامير  
البرشام تلك .. إن قدرة المرء على تحمل الحماقات  
أقل بكثير مما تتوقعه أنت .. قلت لنفسى : سحقاً !  
وهكذا وجدت لدى الكثير من الوقت كافياً للتأمل ..

ومن حين لآخر أتذكر ( كورتز ) .. لم أكن مهتماً  
به .. لكنني فضولي كي أرى كيف سيصعد هذا الرجل  
- المسلح بالأخلاق والمثل العليا - إلى القمة ، وكيف  
سيدير العمل حين يصل إليها .

★ ★ ★





- « الجو قد يساعدك على التخلص منه .. هل هو وحيد هناك ؟ »

- « نعم .. لقد أرسل ( كورتز ) مساعدته إلى برسلة تقول : أبعد ذلك الأحمق عن البلاد ولا تضايقتي .. أفضل الوحدة عن استقبال هذا النوع من الرجال .. كان هذا منذ عام .. هل تتخيل مدى الوقاحة ؟ »

- « وهل جد جديد بعد هذا ؟ »

- « عاج .. الكثير منه .. من أفضل الأنواع .. كميات هائلة .. »

كانا يتكلمان عن ( كورتز ) ..

كنت الآن قد أققت تمامًا ، لكنني حافظت على رقتي لأسمع ..

- « وكيف وصل العاج عبر كل هذه المسافة ؟ »

- « وصل على قوارب صغيرة .. كان يقودها نصف هندي نصف إنجليزي يعمل لديه ، ثم عاد

ذات ليلة كنت نائمًا على ظهر القارب ، حين سمعت رجلين يتكلمان على ضفة النهر .. أرحت رأسي على ذراعي ثانية وكدت أغرق في النعاس ، حين سمعت من يقول في أذني :

- « أنا لا أستطيع الإبقاء كالأطفال ، لكني أكره أن يملأ على أحد شيئًا .. هل أنا المدير أم لا ؟ لقد أمرت بإرساله إلى هناك ، وهذا لا يصدق .. »

وفهمت أن الرجلين يقفان عند مقدمة القارب .. ولم أتحرك .. لم يخطر لي أن أتحرك لأنني كنت شبه نائم .. وسمعت باقي الكلام :

- « هذا لا يدعو للسرور .. لقد طلب هو من الإدارة أن يرسل هناك .. وفكرته أن يريهم ما يستطيع أن يفعله .. تأمل مدى نفوذ هذا الرجل .. أليس هذا مرعبًا ؟ »



وانخفضت الأصوات قرفت رأسي ، لأجد مندهشاً  
أنهما تحتي بالضبط

( كورتز ) إلى الداخل. بقارب صغير بدواليب .. كانت  
هذه أول مرة أرى فيها ( كورتز ) بقاربه ذي الدواليب  
التي يحركها للزوج .. وقد يمم وجهه شطر الأدغال ..  
نحو محطته المهجورة الخالية .. أنت تعرف أنهم  
لا يشيرون إليه باسمه أبداً ، بل يقولون ( نلك الرجل ) ،  
لما مرافقه نصف الإنجليزي فيطلقون عليه ( نلك الوغد ) ..  
وقد أخبرنا ذلك الوغد أن ( الرجل ) كان مريضاً جداً  
لكنه شفى إلى حد ما .. »

قال الآخر في ضيق :

.. « سحقا للمنافسة ! لا بد من طريقة لمنع هذه  
المنافسات .. لو أن أحدهم شق مرة .. أنت تعرف  
أن كل شيء ممكن في هذا البلد .. »

.. « إن الرجل لا يريحني ، وقد أتعنى حين كان هنا » :

وانخفضت الأصوات قرفت رأسي ، لأجد مندهشاً  
أنهما تحتي بالضبط .. يمكنني أن أبصق على قبعتيهما  
لو أردت .. وأطلق الرجلان السباب وابتعدا وقد ارتسم  
ظلهما خلفهما .. طويلاً كنيياً ..



بعد شهرين بدأت رحلتى عبر النهر ..

إن السفر عبر النهر يشبه العودة القهقري إلى بدايات العالم ، حين طغت النباتات على الأرض ، وكانت الأشجار ملوكاً .. نهر خاو .. صمت عظيم .. غابة لا يمكن اختراقها .. الهواء دافئ ثقيل ..

لا شيء يسر في ضياء الشمس .. وعلى الضفاف الفضية تغفو التماسيح وأفراس النهر .. والمياه تسرى بين حشود من الجزر الخشبية .. تضل طريقك في هذا النهر كأنك في الصحراء .. تبحث عن قناة وتحسب نفسك مسحوراً ، وأنت معزول للأبد عن أى شيء تعرفه .. بعيداً .. فى مكان ما .. فى وجود آخر ربما .. تسترجع ذكريات الماضى فى شكل حلم صاخب وسط هذا العالم الغريب من النباتات والماء والصمت ..

هدوء الماء هذا لا يشبه السلام فى شيء .. وكنت أحاول جاهداً أن أدرس النهر وأعرف أين توجد الصخور .. وأطبق على شفتى السفلى وقلبي يسقط

فى قدمي ، حين أوشك على أن ألامس صخرة تنذر بتمزيق قاع القارب .. إن الحقيقة - أقول لكم - تتلشى .. تخيل رجلاً مربوط العينين يمشى للمرة الأولى فى طريق وعر .. لا أزعم أننا لم نعلق بقاربنا فوق الصخور .. عندها كنت أستعين بطاقمى من أكلة لحوم البشر .. أناس طيبون أكلة لحوم البشر هؤلاء .. كانوا رجالاً يمكنك أن تعمل معهم .. وعلى الأقل لم يأكل بعضهم البعض أمام عيني .. كانوا قد جلبوا معهم بعض لحم أفراس النهر ، الذى تعفن .. وجعل لغز الأحراش له رائحة كريهة بالنسبة لى .. أف ! يمكننى أن أشمه الآن .. كان المدير معى على ظهر القارب ..

تنتفح الأحراش أمامك وتنطق من خلفك كأنها تحاول أن تسد عليك طريق العودة .. وتوغلنا أكثر فأكثر فى قلب الظلام ..

كان الهدوء تاماً هناك .. أحياناً فى الليل يدوى قرع للطبول خلف الأشجار ، كأنما يحوم فى الهواء فوق

رعوسنا حتى الفجر .. لانعرف إن كان معناه الحرب  
أم السلام أم الصلاة ..

كنا نعضى فى أرض تمت لما قبل التاريخ .. على  
أرض تنكرت فى ثياب كوكب مجهول . كائننا أول  
ورثة لإرث ملعون .. ننزلق كالأشباح خائفين ، كائننا  
العقلاء فى مستشفى مجانين تجتاحه ثورة مجنونة ..

كانت الأرض لا تمت لكوكب الأرض بصلة ..  
والرجال : لا .. ما كانوا بشرين .. أنت تعرف أن  
هذا أسوأ ما فى الأمر .. كنت تراهم من بين  
الأحراش من حين لآخر ، فيخيفك الشك فى حقيقة  
أدميتهم ، وفى كونك ربما تمت لهم بصلة قبرى ولو  
واهية .. أنت تفهم ضوضاءهم لأن فيها كل شيء ..

الحقيقة .. الحقيقة التى تجردت من دثار الزمن ..  
لكن لا وقت عندي لهذه التأملات ، لأننى أراقب الغلايات  
والمواسير .. وأراقب المتوحش الذى صار وقاداً ..  
إنه يعمل قبرى هنا ، ومشاهدته لا تقل غرابة عن  
مشاهدة كلب يمشى على قدميه الخنفيين ويعتمر

قبعة .. كان قد برد أسنانه لتبدو حادة وثمة ثلاث  
تدوب على كل خد .. كان من المفترض أن يكون  
الآن على الشط يصفق بيديه ويرقص ، لكنه كان  
يؤمن بحقيقة علمناها له : لو نفذ الماء من هذه  
الغلاية لهاجت الروح الشريرة فيها بسبب الظما ..  
ولانتقلت انتقاماً مريعاً .. لهذا كان يراقب الغلاية فى  
رعب وقد ثبت تعويذة مرتجلة على ذراعه ، وقطعة  
عظم فى حجم الساعة ثبتها فى شفته السفلى ..

بعدما قطعنا خمسين ميلاً من الرحلة ، وصلنا  
كوخاً من القصب على الضفة .. ثمة بقايا علم  
لا يمكن تعرفه ترفرف من فوقه .. وكومة من الحطب ..  
قرب الكومة وجدنا قطعة خشب كتب عليها بالقلم  
الرصاص كتابة باهتة تقول :

« هنا خشب لكم .. اقتربوا .. اقتربوا بحذر .. »

وثمة توقيع لكنه ليس توقيع ( كورتز ) .. الاسم  
أطول من هذا ..



ماذا يريد منا ، ولماذا نقرب بحذر ؟ لا يمكن فهم هذه الكلمات .. إن الأحراش كثيفة لا تسمح لنا بالتدقيق ولا الرؤية .. كانت هناك ستارة حمراء على باب الكوخ وما يدل على أن رجلاً أبيض عاش هنا من قريب .. وفي الداخل كان كتاب اهترأت صفحاته .. عن الملاحه كتبه ضابط في أسطول صاحبة الجلالة ، والغريب أن هناك من درسه بعناية وكتب ملاحظات شفرية على الهوامش .. تصور هذا ! رجل في قلب الغابة يعنى بأن يشفر ملاحظاته على كتاب عن الملاحه !

برغم هذا أحببت الكتاب لأننى شعرت بأنه شيء حقيقى .. بسسته فى جيبى بينما كانت كومة الحطب قد اختفت .. حملها الزوج إلى قاربنا ، وسمعت المدير يزلز منادياً إياى ..

بدأت المحرك ، على حين قال المدير :

« لا بد أن نلك التاجر .. ذلك القص ... »

قلت له :

« لا بد أنه كان إنجليزياً .. »

غمغم المدير فى كآبة :

« ما كان هذا ليحميه لو لم يتخذ حذره .. »

مساء اليوم التالى قدرنا أننا على بعد ثمانية أميال من مكان ( كورتز ) .. أردت أن أسرع لكن المدير قال فى جدية : إن الملاحه هنا خطيرة فعلاً ، بحيث صار من الحكمة أن نمضى الليل حيث نحن .. بالإضافة إلى أننا لو أردنا أن نتبع تعليمات الكتابة التى تنصحن بالحذر فى أثناء اقترابنا ، فعلىنا أن نقرب فى النهار لا الليل ..

كان هذا معقولاً .. إن ثمانية أميال معناها ثلاث ساعات ملاحه .. لكنى كنت متضيقاً بسبب التأخير ، وهو ضيق لا معنى له ، لأنه لا أهمية لليلة واحدة أخرى بعد عدة أشهر من التأخير ..

كان الصمت محيراً كان الغابة تحولت كلها إلى

حجر .. ما كان هذا نومًا بل هو شيء غير طبيعي  
كالغيوبة .. تشعر بالدهشة وتشك في أنك فقدت  
السمع نهائيًا ..

ثم يأتي الليل فجأة ليصيبك بالعمى كذلك ..

حين بزغت الشمس كان هناك ضباب .. ضباب  
كثيف ساخن يعميك أكثر من الظلام .. وفي التاسعة  
صباحًا ارتفع كأنه غطاء يرتفع .. ورأينا الأشجار  
وكرة الشمس فوقها ..

كل شيء صامت ساكن .. ومن جديد عاد الضباب  
يهبط في كثافة ..

ثم دوت صرخة .. صرخة عالية فيها نغمة لا حد  
لها .. ثم نوى صخب وحشى ..

كانت المفاجأة مما جعل شعر رأسى ينتصب تحت  
قبعتى .. لا أدري ما حسبه الآخرون لكنى حسبت  
الضباب نفسه يصرخ ..

ثم ساد الصمت تاركًا إياتنا في أوضاع أقرب إلى  
السخف والغباء ..

وسألنى أحد المتجهين معى إلى قلب الظلام :

- «يا إلهى الرحيم ! ما معنى هذا ؟»

وهرع اثنان إلى داخل القمرة ، ثم عادا وهما  
يصوبان إلى الغابة نظرات رعب ، وفي يد كل منهما  
بندقية ( ونشستر ) لكننا لم نر إلا حدود القارب الذى  
نحن فيه ، وبعد هذا لا شيء على الإطلاق .. ونسيت  
العيون أن ترمش ..

وتصاعل واحد :

- « هل سيهجمون ؟ »

وقال آخر :

- « سوف يذبحوننا جميعًا فى هذا الضباب .. »

ولم يبد السوء فلقًا بلقًا .. كلنا فهموا الأمر تلمنا  
بجمل قصيرة مقتضبة .. دنا منى أحدهم وهو شاب  
متين البنيان عريض الصدر ، له شعر مجعد دهنه  
بالزيت فى عناية ، وقال لى وقد احمرت عيناه :

- « لمسكهم .. »



- «لم ؟»

- «أمسكهم .. أعطنا إياهم ..»

- «لماذا ؟»

- «نأكلهم ..»

ومل على حلجز القارب يرمى للضباب في تأمل .

والحقيقة أن ما معنى من الرعب هو أنني أعرف أن هؤلاء الشباب جاعون حقاً .. كانوا قد حملوا معهم كميات من لحم فرس النهر لكنه فسد .. وقد تخلصنا من كثير منه دفاعاً عن النفس .. فانت لا يمكنك أن تشم لحم فرس النهر المتعفن حين تصحو وحين تنام وحين تأكل ، وتحافظ على عقلك في الوقت ذاته ، بالإضافة لهذا كنا نعطي كلا منهم قطعة من السلك النحاسي .. حوالى تسعة أقدام كل أسبوع ، على أساس أنهم سيشترون بها احتياجاتهم من القرى المجاورة .. لكن لم تكن هناك قرى .. ولم يكن المدير راغباً في إيقاف القارب ..

لهذا لم يعد من حل هؤلاء القوم إلا أن يأكلوا السلك أو يصطادوا به السمك .. فلا نفع إذن من هذا الراتب المرتفع الذي يتقاضونه .. يجب أن أقول إن هذا الراتب كان يدفع بانتظام يليق بشركة محترمة ..

لماذا بحق السماء لم ينقضوا علينا ؟ هذا يثير دهشتي الآن حين أفكر فيه .. كانوا أقوىاء شجعان برغم أن جلودهم لم تعد تلمع بذات البريق .. وكانوا عاجزين عن تقييم التبعات أو المخاطر ..

كُنْ هناك نوع من الترويض .. نوع من السر الذي لا يمكن فهمه . وهذا ما كان يمنعهم من إتهامنا .. نوع من القمع .. ربما هو الخوف أو الصبر أو الإشمزاز .. لكن ما أصعب أن يقاوم المرء الجوع .. من السهل أن تقاوم الحرمان أو العار أو الإشمزاز .. لكن ليس الجوع الممض الطويل ..

قال المدير من خلفي :

- «الأمر خطر .. سوف أحزن جداً لو حدث شيء للمستتر ( كورتز ) قبل أن تصل إليه ..»

نظرت له ولم أرتب في أنه صادق .. إنه رجل  
حريص على المظاهر .. لكن حين تكلم عن مواصلة  
الرحلة ، لم أجبه .. فهو يعرف تمامًا أننا لا نستطيع  
المضي في هذا الضباب وإلا ضعنا تمامًا ..

بالطبع لم أتحرك .. لم أكن رائق المزاج لتجربة  
تهشيم القارب على الضفة .. لا يوجد مكان أسوأ من  
هذا لتحطم سفينة .. وسواء غرقنا أو لم نغرق ،  
فلسوف نقضي نحبنا بسهولة تامة ..

قال لي :

- « أنا أمرك بالمخاطرة .. »

قلت له :

- « وأنا أرفضها .. »

وهي الإجابة التي توقعها .. لكنها أثارت دهشته ..

قال بتحضر :

- « حسن .. سأقبل حكمك فأنت القبطان .. »

ونظرت إلى الضباب وحاولت أن أتصور متى يزول ،  
لكن هذا كان مستحيلًا .. إن الطريق إلى ( كورتز )  
هذا محفوظًا بالمخاطر ، حتى كأنه ملك أسطوري في  
قلعة مسحورة ..

سألني :

- « هل تحسبهم سيهجمون ؟ »

لم أتوقع هذا لأسباب عدة .. الضباب الكثيف سبب  
منها .. لو خرجوا من الضفة على قواربهم فلسوف  
يعجزون عن الوصول إلى قاربنا ..

بالإضافة لهذا شعرت أن الأحرار الكثيفة غير  
قابلة للاختراق .. هناك عيون فيها لكنها لا يمكن  
اختراقها .. كذلك كانت الصرخات أقرب إلى الحزن  
والأسى ولا توحى بالشراسة والهجوم .. شيء ما  
في قاربنا ملأ المتوحشين حزنًا لسبب لا أفهمه ..  
إنه رد فعل أقرب إلى النفور منه إلى التهديد ..

لما تقشع الضباب وواصلنا المسير ، رأينا على بعد



ميل ونصف من مقر (كورتز) جزيرة صغيرة في  
منتصف النهر .. لما اقتربنا أدركت أنها مجموعة  
من الجزر الصغيرة أكثرها تحت الماء ، كما ترى  
سلسلة ظهر الرجل تحت جلده ..

اتجهنا إلى الغرب لأننى أعرف أن المحطة توجد  
في الغرب ..

ما إن مررنا حتى أدركت أن القناة أضيق مما  
تصورت ..

فجأة رأيت الزنجى الذى يختبر عمق النهر يتخلى  
عن مهمته ويرقد على السطح .. بالمثل وجدت  
الوقاد يترك عمله ويدفن رأسه بين يديه .. أصابتنى  
لدهشة ، ثم وجدت أن عصياً كثيرة تخرج من الأحراش ..  
وتضرب كل شيء .. عصي .. عصي ..

رباه ! نحن نقذف بالسهم ! لكننا سنرتطم بالضفة .

هرعت إلى جانب القارب فرأيت وجهها على نفس  
مستوى وجهى .. ينظر لى بوحشية وثبات .. ثم

كأنما أزيل غطاء عن عيني ، رأيت أن الدغل يعج  
بأجسام برونزية عارية .. وعيون براقّة غاضبة ..  
اهتزت الفصون ومنها خرجت آلاف الأسهم ..  
وأمامنا رأيت جذع شجرة فى منتصف التيار ..

ثم سمعت من تحتى من يقول :

- « هل يمكنك أن تتراجع ؟ »

ثم انطلقت القذائف من تحتى .. إن المسافرين إلى  
قلب الظلام قد جاعوا بينادقهم ، وسرعان ما راحوا  
يقذفون بالرصاص إلى الدغل .. وتصاعد الدخان ..  
واندفعت الأسهم كسرب للنحل ، ولربما كانت مسمومة  
لكن بدا لى أنها لا تقدر على إيذاء قط ..

ودوت بندقية من خلفى فأصابتنى بالصمم ..

لا توجد مسافة كافية للتراجع القهقرى حتى لو رأيت  
هذا .. لهذا اندفعت نحو الضفة حيث الماء أكثر عمقا ،  
واخترقنا مجموعة من الفصون المتشابكة ..

تدحرج عملاق ليسقط عند قدمى .. كان هذا هو  
مراقب الدفة .. ثمة شيء دافئ عند قدمى .. نظرت  
لأسفل فرأيت أن رمحا يخترق ضلوعه ..

وقدرت أن أماننا بضعة أمتار يمكننا بعدها أن  
نعود إلى وسط النهر ، بعدما نكون تجاوزنا الجذع  
الطافي .. كان حذائي الآن مليئا .. بركة دم تغطي  
الأرض .. الرجل يتشبث بالرمح بين ضلوعه في  
رعب كأنه شيء ثمين يخشى أن انتزعه منه .. كان  
على أن أبذل جهدا كي أحرر عيني من نظرتي وأوجه  
اهتمامي إلى عجلة القيادة ..

بيد واحدة بحثت عن الصفارة .. وسرعان ما قُطِلَ  
الصراخ للمخيف الغاضب ليدوى في الأحراش .. كلما  
ينعى اختفاء آخر أمل من على وجه الأرض ..  
كانت هناك حركة في الأحراش .. توقف شلال  
السهم ثم ساد الصمت ..

خرج لي أحد البيض الراحلين إلى قلب الظلام ،  
وقال لي :

- « أرسلني المدير .. »

ثم رأى جثة الزنجي فهتف :

- « يا إلهي الرحيم ! »

ووقفنا فوق الجثة .. بينما المحتضر يرمقنا بنظرة  
متسائلة غمرتنا .. بدا كأنما سيسألنا سوألا بلغة  
مفهومة لنا ، لكنه لفظ أنفاسه بلا صوت .. دون أن  
يحرك عضلة .. وتلاشى بريق عيني في نظرة  
زجاجية خاوية ..

سألت الرجل الأبيض :

- « هل تستطيع تحريك عجلة القيادة ؟ »

بدا لي حائرا فأمسكت بذراعه مكررا سوألي ..  
لأقول الحق ؛ كنت راغبا بشدة في استبدال جوربي  
وحذائي الملوثين بالدم ..

- « للزنجي مات .. »

- « لا أشك في هذا .. وأعتقد أن مستر (كورتز)  
هو الآخر قد مات »

وشعرت بخيبة أمل كأنما سافرت كل هذه المسافة  
لا لغرض إلا لأرى مستر (كورتز) .. بل أدركت كم  
كنت أصبو لسماعه يتكلم ..

ألم أسمع دائماً - مع الكثير من الحسد أو الغبطة  
أو المقت - أن الرجل يجمع من العاج ما يفوق  
ما يجمعه الآخرون جميعاً ؟

طوحت بهذا لى إلى النهر .. وقلت لنفسي :

- « بحق السماء قد تأخرنا جداً .. لن أرى الرجل  
أهذا ولن أسمع ، والسبب رمح وسهم وعصا .. »

ولسبب ما شعرت كأنما سلبت عقلي ، لو فقلت آخر  
هدف لى فى الحياة .. تقولون إن هذا سخف ! سخف ؟  
ماذا تعرفون أنتم يا سادة وأنتم تجلسون هنا بصحة طيبة  
وحرارتكم سليمة ؟ ماذا تعرفون عن رجل بلغ به  
الجنون وهذيان الحمى أن تخلص من حذاته الجديد  
فى النهر !!؟

طبعاً كان مكتوباً لى أن أسمع كلمات (كورتز)  
وإن لم أفهم هذا وقتها ..

فيما بعد استطعت أن أرى كتباً كتبه (كورتز) عن  
طريقة تهذيب السكان المتخلفين فى تلك الأصقاع ..  
كيف وجد الوقت لذلك ؟ لا أدري ..

كفت أول فقرة قد صممتى .. لأنها تقول : « من وجهة  
نظر التقدم الذى أحرزه الرجل الأبيض ، فمن  
الضرورى أن يراق المتوحشون ككائنات خارقة للطبيعة ..  
وأن نتعامل معهم من منطق الأكوهية .....  
وبالتدريب البسيط يمكن أن نصل إلى قوة لفعل الخير  
هى - عملياً - غير محدودة .. »

كان منطق رائجاً برغم أنه من الصعب تذكر  
الكلمات كما تعرفون .. لقد جعلنى أشعر بقشعريرة  
من الحماسة تلك هى قوة البلاغة .. قوة الكلمات ..  
وفى نهاية الكتيب ملحوظة بيد غير ثابتة ، كأنها  
البرق ، تقول :

- « أريدوا كل المتوحشين ! »

وكأنما نسي تماماً كل ما قلته عن أساليب الحيلة ..

لكنه كان شخصاً غير طبيعى .. كانت لديه القدرة  
على أن يخلب لب المتوحشين كي يرقصوا من أجله  
رقصات سحرية .. وأنا لن أستطيع أن أنساه برغم



أتنى أومن أن الرجل لا يستحق تلك الحياة التى  
فقدناها ونحن نحاول الوصول إليه ..

لقد افتقدت تلك الزنجى المسئول عن الدفة .. افتقدته  
حتى وجسته مازالت سلخنة على أرض قمرة القيادة ..  
هذا قد يبدو لك غريباً بالنسبة لمتوحش لا تمثل حياته  
أكثر من ذرة رمل فى الصحراء .. لكننى عرفته ..  
واعتدت أن أراه على الدفة خلفى .. عوناً .. أداة ..  
نوعاً من الزمالة .. كنت أعنى به ، وقد تكونت  
صداقة بيننا لم أدر بها إلا حين تحطمت .. ولم أزل  
أذكر نظرتيه لى كأنما هى مطلوبة بقرابة بعيدة بيننا ..

فما إن وجدت خفين جديدين ، حتى انتزعت الرمح  
من جانبى .. وهى عملية أعترف لنى قمت بها بعينين  
مفتقتين . لحتضنته وجذبتة نحو الباب .. كان ثقيلاً ..  
ثقيلاً .. أثقل من أى رجل على الأرض .. ثم ألقيت  
به فى اليم .. والنقطة التيار بسهولة كأنه بعض  
العشب ، وانقلب مرتين قبل أن يحمله الماء بعيداً ..  
ووقف بعض المسافرين نحو قلب الظلام يرمقوننى فى



كان ثقيلاً ثقيلاً أثقل من أى رجل على الأرض  
ثم ألقيت به فى اليم .. والنقطة التيار بسهولة

نوع من التألف لخشونتي .. لا أرى إن كانوا يعتقدون  
أنه من الإنسانية أن أتركه للأبد على ظهر القارب ..  
وفي قاع القارب كان المسود كذلك غير راضين  
عني ، وإن كان لأسباب أخرى . لكنني كنت قد قررت  
أنه لو اتهم أحد صديقي هذا ، فالأسماء وحدها لها  
الحق في ذلك .. كان رجل نفة ردينا في حياته لكنه  
الآن وقد مات صار طعاماً من الدرجة الأولى ،  
ولربما سبب لنا المتاعب ..

وكان الجميع الآن يعتقدون أن المتوحشين قتلوا  
(كورتز) وحرقوا المحطة ..

قال لي الرجل الذي كان قد تولى القيادة والذي  
أخذت منه العجلة الآن :

- « قل لي .. لابد أننا نبخنا الكثيرين منهم في  
الأحراش .. هل ترى هذا ؟ »

وكاد يرقص من الانفعال .. هذا الحفير الضام  
للدماء .. كدت أقول له : إنك أحدثت سحابة دخان  
ممتلئة جداً .. هذا كل شيء .

فقد أدركت من الطريقة التي اهتزت بها الأحراش  
أن أكثر الطلقات كانت عالية جداً .. هؤلاء الشباب  
كانوا يطلقون النار لأعلى من جوار أردافهم وهم  
يغمضون عيونهم .. وقرت - وكنت محقاً - أن الاسحب  
كان بسبب الصفارة العالية .. لا أكثر ..

ووقف المدير يغمغم شيئاً عن ضرورة الابتعاد في  
النهر قبل الظلام بأي ثمن .. عندها رأيت فسحة بين  
الأشجار والمعالم الخارجية لمبنى .. سألته :

- « ما هذا ؟ »

صفق بيديه في انبهار :

- « المحطة !! »

وعبر عدسات نظارتي المقربة ، رأيت منحدر تل  
خالياً من النباتات ، وثمة مبنى متهاك نصف دفين  
وسط أعشاب عالية ..

لم يكن هناك سور من أي نوع .. وإن تبينت بقايا  
ولحد .. ثمة أعواد بارزة من الأرض تعلو كلاً منها

كرة في محاولة ما للزخرفة .. لكن لا يربطها شيء ..  
وبالطبع كانت الغاية تحيط بهذا كله ..

ضفة النهر كانت واضحة وعلى الضفة رأيت رجلاً  
أبيض يعتمر قبعة كأنها عجلة سيارة .. يشير لنا  
بلا توقف بذراعه كلها ..

وإذ تفحصت الدغل فوقه وتحتّه أكاد أقسم إنني  
ميزت حركة .. أشكّالاً بشرية تنزلق هنا هناك ..

أوقفت المحركات في حذر وتركت القارب ينزلق  
فوق الماء .. بينما راح الرجل على الشط يصيح  
ويطالبنا بالرسو ..

صاح للمدير :

« لقد هوجمنا ! »

« أعرف .. أعرف .. كل شيء تمام .. »

قلها للرجل في سرور لا يمكنك تخيله .. ولريف :

« كل شيء تمام .. أنا مسرور .. »

نكرتني طريفته بشيء مضحك رأيته في مكن ما ..  
وقد رحت أسأل نفسي وأنا أحاذي الضفة :

« من يشبه هذا الرجل ؟ »

ثم تذكرت فجأة .. يبدو كالمهرج .. ربما كانت  
ثيابه بنية يوماً ما لكنها الآن مغطاة بكل ألوان  
الرقع : صفراء حمراء زرقاء .. حزام ملون  
حول خصره وقد جعله ضوء الشمس يبدو خليعاً  
مبهرجاً ..

له وجه طفل أشقر بلا لحية .. لا ملامح يمكن أن  
تلاحظها .. عينا زرقاوان صغيرتان .. البسمة  
والنقطوية تتسابقان على وجهه كالشمس والظل في  
واد تعصف به للرياح ..

« خذ الحذر يا كابتن .. هناك جذع شجرة استقر  
هنا للبارحة .. »

« ماذا ؟ جذع آخر ؟ »



قلتها وأعترف أنني أطلقت سببة .. فقد أعددت  
نفسى لانتهاء هذه الرحلة الرائعة .. نظر لى المهرج  
وسألنى :

- « هل أنت إنجليزى ؟ »

صرخت من وراء عجلة القيادة :

- « وأنت ؟ »

كف عن الابتسام .. فسألته :

- « هل وصلنا فى الوقت المناسب ؟ »

هز رأسه نحو التل وقال :

- « إنه هناك .. »

وصار مكتئباً فجأة .. إن وجهه كسماء الخريف  
التي تشرق فجأة ثم تتجهم فجأة ..

وحين اتجه المدير والرجال إلى الكوخ - مسلحين

حتى الأستبان - صعد ذلك الفتى إلى ظهر القارب ..  
قلت له :

- « لأحب هذا .. إن هؤلاء الوطنيين فى الأكراش .. »

طمأنتنى أن كل شيء على ما يرام ، وقال :

- « إنهم أناس طيبون بسطاء .. وهم لا ينوون  
إيذاء أحد . »

ثم صحح الأمر :

- « ليس بالضبط .. على فكرة .. أعتقد أن قمره  
قيادتكم بحاجة إلى تنظيف ! »

ثم نصحنى أن أبقى الغلاية موقدة حتى أطلق الصفارة  
فى حالة حدوث متاعب ..

- « صفارة واحدة جيدة ستفيد أكثر من  
كل بنادقكم .. »

كان يثرثر كلما يحاول أن يعوض كل فترات الصمت ،  
وقد اعترف أن هذه هى الحقيقة .. فسألته :

- « ألا تتكلم مع مستر (كورتز) ؟ »

- « أنت لا تتكلم مع ذلك الرجل وإنما تصغى إليه .. »

ثم لوح بذراعه وأردف :

- « أما الآن .... »

وفي لمح البصر كان مزاحه قد استحال إلى قمة القنوط واليأس . ثم في اللحظة التالية عاد له مزاحه المرح ، وصافحنى بكلتا يديه بينما راح يتكلم :

- « أخوك البحار .. هذا شرف .. سرور .. أقدم لك نفسى .. روسى .. ابن قس .. ما هذا ؟ طباق إنجليزى ؟ طباق إنجليزى ممتاز ؟ تدخن ؟ هل من بحار لا يدخن ؟ »

بدأ التدخين يهدنه قليلاً .. وسرعان ما فهمت أنه فر من المدرسة وذهب إلى البحر فى سفينة ورسية .. ثم فر وعمل على سفن إنجليزية .. ثم وصل إلى هنا ..

- « لا بد للمرء حين يكون صغيراً من أن يجمع الخبرات والتجارب .. »

قاطعه فى دهشة :

- « هنا ؟ »

قال فى تقديس :

- « لا يمكن أن تتبأ بشيء .. هنا قابلت مستر (كورتز) .. »

لقد راح يجول فى أعماق البلاد خالى الذهن من أى خطر كائنه طفل رضيع .. راح يجول حول النهر عامين وحيداً منعزلاً عن كل شيء وكل شخص ..

قال لى :

- « لست صغيراً كما تتوهم .. أنا فى الخامسة والعشرين .. لقد أعددت لكم بعض الحطب .. هل رأيته ؟ كان هذا بيتى القديم .. »

أعطيته الكتاب الذى احتفظت به ، فبدأ كأنما  
سيقبلنى وهتف :

- « الكتاب الوحيد الذى تركته وقد حسبت أننى  
فقدته .. »

وراح يقلب الصفحات فسألته :

- « هل كتبت التعليقات بالروسية ؟ لقد حسبتها  
مشفرة .. »

ضحك ثم استعاد حديثه وقال :

- « بذلت الكثير من الجهد لأبعد هؤلاء القوم .. »

- « هل كانوا يريدون قتلك ؟ »

صاح :

.. « لا .. لا .. »

فتابعت سؤالى :

- « إذن لماذا هاجمونا ؟ »

تردد ثم قال فى شىء من الخجل :

- « لا يريدونه أن يرحل .. »

وهز رأسه فى كثير من الغموض والحكمة ..  
وصاح :

- « أقول لك إن هذا للرجل قد جعل عقلى يكبر .. »

وفتح نراعيه وهو يتسم بعينيه للصغيرتين كاملتى  
الاستدارة ..

\* \* \*



نظرت له في دهشة .. هو ذا ألقى في ثيابه الغربية  
كأنما فر من فرقة ممثلي باتتومايم .. متحمس ..  
وجوده ذاته لا يصدق وغير قابل للتفسير ومحير .. كان  
مشكلة لآحل لها .. من العسير فهم كيف وجد ولا كيف  
وصل إلى هنا .. وكيف بقي ؟ وكيف لم يتلاش ..

قال لي :

« لقد ابتعدت قليلاً قليلاً .. حتى وصلت لنقطة  
لا أعرف كيف أعود بعدها .. لا يهم .. ثمة وقت متسع ..  
فقط أبعوا ( كورتز ) عن هنا بسرعة .. أضحكم بهذا .. »

شعرت نحوه بإعجاب .. ربما إلى درجة الحسد ..  
السحر جعله يبقى حياً سالماً في بقعة كهذه .. ولم  
يكن يطلب من الدغل شيئاً إلا متسغاً يمكنه أن  
يتنفس فيه . لو أن روح المغامرة المطلقة النقية  
التي لا تحسب حساب شيء .. لو أن هذه الروح  
اختارت أن تحل في بشر ، فهو هذا الفتى ..

أما عن ( كورتز ) فهو لم يسع له .. لقد هبط عليه  
وتقبل هو الأمر بنوع من القدرية .. لكنني أجد أن هذا  
اللقاء هو أعظم خطر مر بهذا الفتى حتى اللحظة ..

أعتقد أن ( كورتز ) كان بحاجة إلى مستمعين ..  
ويبدو أن الفتى ظل يسمعه ليالي بأكملها ..

قال الفتى متذكراً :

« تكلمنا عن كل شيء .. نسيت أن هناك شيئاً  
اسمه النوم .. لم يبد لي أن الليل طوله أكثر من  
ساعة .. كل شيء .. »

« ومن وقتها لم تتركه ؟ »

حكى لي في فخر كيف أنه مرض مستر ( كورتز )  
خلال مرضين .. لكن - كقاعدة عامة - كان ( كورتز )  
يجول وحيداً في أعماق الدغل ..

« كنت أنتظر أياماً وأياماً حتى يعود .. »

« وماذا كان يفعل ؟ يستكشف أم ماذا ؟ »

- « بالطبع .. لقد اكتشف الكثير من القرى وبحيرة ..  
لكن لا أعرف فى أى اتجاه .. من الخطر أن تسأل  
أكثر من اللازم .. لكن المؤكد أنه كان يحصل على  
الكثير من العاج .. هناك الكثير من الخراطيش  
النارية هنا .. »

- « تعنى أنه غزا البلاد ؟ »

هز رأسه .. فسأته :

- « ليس وحده طبعاً .. »

قال إن سكان القرى حول البحيرة ساعدوه ..  
وأضاف :

- « إنهم يعبدونه .. »

كان من الغريب أن ترى هذا الخليط من الشوق والنفور  
لديه عند الكلام عن (كورتز) .. لقد قعم الرجل حياته ..

قال لى :

- « ماذا تتوقع ؟ لقد جاءهم بالبرق والرعد .. »

ولم يكونوا قد رأوا شيئاً كهذا .. وهو رجل شنيع ..  
يمكنه أن يكون شنيعاً .. لا تستطيع الحكم على هذا  
الرجل كما تستطيع مع رجل عادى .. كى أعطيك  
فكرة عنه .. لقد أراد أن يطلق النار على ذات يوم ..  
لكننى لا ألومه .. »

صحت مستكراً :

- « يطلق عليك النار ؟ لعله ؟ »

- « حسن .. كان لدى القليل من العاج الذى أعطانيه  
زعيم تلك القرية .. لكنه أرادته ولم يسمح للمنطق أن  
يتكلم .. وأوضح أنه سيقطنى ما لم أعطه العاج ،  
لأنه يريد .. ولاشئ فى الأرض يمكن أن يمنعه  
من قتل من يرغب فى قتله .. أعطيته العاج .. لكنى  
لم أرحل .. »

- « كان على أن أكون حذراً حتى تعود صداقته لى ..  
بعدها مرض .. كان يعيش أكثر الوقت فى القرى المجاورة  
للنهر .. لقد عانى هذا الرجل كثيراً ، وكان يمقت هذا  
كله .. لكنه كان مصراً على البقاء .. كان يريد أنه راغب

فى الرحيل لكنه لا يرحل أبدا .. وينطلق فى رحلة  
أخرى من أجل العاج ، وينسى نفسه وسط أولئك  
القوم .. »

- « لكنه مجنون إذن ! »

اعترض فى كبرياء .. مسر ( كورتز ) ليس مجنوناً ..  
لو سمعته يتكلم منذ يومين لما جرؤت على أن أصفه  
كذلك .. كنت قد رفعت نظرتى المقربة فى أثناء الكلام  
ورحت أتفقد الشط .. لم تكن الأحراش تتحرك كأنها  
القناع .. وكانت ثقيلة كباب سجن .. كانت تبدو  
و كأنها تخفى الكثير .. كأنما هى تخفى الكثير من  
الترقب الصبور والصمت الذى لا يخترق ..

كان الروسى يحكى لى كيف تولى ( كورتز ) لفترة ،  
ثم عاد مع مجموعة من رجال قرى البحيرات . عازماً  
فيما يبدو على شن غارة على مجموعة أخرى من  
القرى .. من الواضح أن شهوة الحصول على المزيد  
من العاج قد انتصرت على رواء الأقل مادية .. لكن  
حالته ساءت فجأة ..

- « سمعت أنه راقد عاجزاً لذا جازفت بأن أتى  
لأرى .. »

صويت النظرة إلى البيت .. لم تكن هناك علامات حياة ..

قمت بتحريك الضبط قليلاً فوثبت بقايا السور إلى  
عدسات النظارة .. وكانت نتيجة هذا الفعل أنسى  
أرجعت رأسى إلى الوراء كأنما تلقيت ضربة .. هذا هو  
ما حسبته من قبل محاولة للزخرفة وكنت مخطئاً ..

لم تكن هذه الأشياء المستديرة زخرفة .. لكنها  
رموز معبرة محيرة .. إنها غذاء للأفكار .. لكنها  
كذلك غذاء للنسور .. على الأقل بالنسبة للنمل الذى  
يتسلق المصباح فى حرية تامة ..

ربما كانت هذه الرعوس المغروسة على العصي  
أكثر تأثيراً لو أن وجوهها لم تدر نحو البيت .. فقط  
أولها كان ينظر لى ..

لكننى لم أصدم كما تتصورون .. إن الحركة التى أجفلت  
بها كانت تعبر عن الدهشة أكثر منها عن الرعب ..



كان لوجه أسود مجعداً كأنما هو ينام فوق العمود ..  
والأسنان البيضاء تلتصع كأنما هو يبتسم كذلك ..  
يبتسم من حلم لا ينتهي في نعاسه الغامض هذا ..

لما لا لكشف أسراراً تجارية، لكن المدير قل لي فيما  
بعد إن أساليب مستر (كورتز) هذه خربت المنطقة ..  
ليس لي رأى في الموضوع لكن أريد منكم أن تفهموا  
أن هذه الرعوس مشروع غير مربح على الإطلاق ..  
هي فقط ترينا كيف أن مستر (كورتز) لا يستطيع كبح  
شهوته .. ثمة شيء يفصح عن نفسه في لوقت معينة  
لاستطيع بلاغته العظيمة وحدها أن تمنحه إياه ..

لابد أن الوحدة قد علمته أشياء عن نفسه لم  
يعرفها من قبل .. همست له بكلمات خلّبت لبه ..  
ترددت في أعماقه الخاوية كأنها الصدى ..

خففت النظارة فبدأ الرأس الذي كان قريباً مني  
إلى حد أن يوسعي الكلام معه .. بدأ بعيداً جداً ..

قال لي الرومى إنه لم يجسر على أن ينزل هذه



ربما كانت هذه الرومى المغروسة على العصي أكثر تأثيراً  
لو أن وحومها لم تدور نحو الميت

الـ .. هذه الرموز .. لم يكن يخاف الوطنيين فهم لن يتحركوا إلا إذا أمرهم مستر (كورتز) .. فسطوة الأخير عليهم مذهلة ..

إن زعماء القبائل يأتون كل يوم كي يروه .. وهم يزحفون على ركبهم حين يقتربون ..

صحت :

- « لا أريد سماع شيء عن الطقوس التي يمارسونها حين يرون (كورتز) .. »

لسبب ما شعرت أن هذه التفاصيل أكثر بشاعة من تلك الرعوس المعلقة على السور .. لقد شعرت بأننى فى كون متوحش حيث الوحشية الخالصة للخام شيء معقول .. بل ومسموح له بالوجود تحت الشمس ..

لم أصغ لتفسيراته للأمر من أن هذه للرعوس كانت رعوس متمردين .. وقد أدهشته بضحكتى .. متمردون ! ما لكلمة الجديدة التى سأسمعها ؟ لقد سمعت عن الأعداء والمجرمين والعصاة .. ثم جاء نور المتمردين .. لكم بدت هذه للرعوس المتمردة هادئة الآن على أوتادها ..

قال الفتى :

- « أنت لا تتصور كم أن هذه الحياة تضغط على رجل مثل (كورتز) .. »

- « لكنك تتصور ذلك ؟ »

- « أنا رجل بسيط بلا أفكار عظيمة .. لا أبغى شيئاً من أحد .. كيف تقارنتنى به ؟ »

وتأججت عواطفه حتى اتهار أخيراً فقال :

- « أنا لا أفهم .. حاولت جهدى كي أبقيه حياً .. ولا يد لى فى هذا كله .. لا توجد هنا قشرة دواء ولا لقمة من الطعام المعقول منذ شهور .. لقد تركوه منبوذاً .. يا للعار ! تصور رجلاً كهذا بأفكار كهذه .. يا للعار ! أنا لم أقم منذ عشرة أيام .. »

وضاع صوته فى هدوء الظلام .. كان الكوخ قد غلب فى الظلام بينما ظللنا نحن فى الشمس .. لا حياة على الشاطئ ..

فجأة قرب ركن البيت ظهر حشد من الرجال كأنما  
نبتوا من الأرض .. كانوا يمشون وسط العشب الذى  
يبلغ الخصور حاملين محفة مرتجلة .. وفجأة من  
الفراغ نوت صرخة كأنها سهم اخترق السكون ليستقر  
فى قلب الأرض ..

وكانه بمفعول السحر تدفق من الدغل سيل من  
للرجال للعراة يحملون قرامح والدروع والسهام والنظرات  
الموحشة .. اهتزت الأحراش وتأرجح العشب .. ثم  
تصلب كل شيء فى سكون مترقب ..

قال الروسى :

— « الآن لو لم يقل لهم الشيء الصحيح فقد  
انتهى أمرنا .. »

كان الرجال الذين يحملون المحفة قد تصلبوا كأنما  
هم حجارة ، بينما هم متجهون إلى القارب ..

ورأيت الرجل الذى على المحفة يجلس ويرفع  
ذراعه .. فقلت :

— « لنأمل أن الرجل الذى يجيد الكلام سيجد سبباً  
لإنقاذنا هذه المرة . »

واستلكت من سخف خطورة موقفنا .. وكان وجودنا  
تحت رحمة هذا الشبح المتوحش ، هو ضرورة مهينة ..

رأيت للرجل يرفع يده ويبتلى بإشارات .. وعيناه تلمعان  
فى رأسه الواهن .. ( كورتز ) .. هذه كلمة معناها  
( قصير ) فى الألمانية .. أليس كذلك ؟ كان فى الاسم  
من الحقيقة قرماً فى أى شيء آخر فى حياته .. وموته ..  
لا بد أن طوله لا يقل عن سبعة أقدام .. لقد سقطت  
الملاءة وظهر جسده .. مثيراً للشفقة مرعباً ..

كان بوسعى أن أرى ضلوعه .. وعظام ذراعه ..  
كان صورة متحركة للموت نحتت من عاج قديم ،  
تهز يدها مهددة فى جمع الرجال المصنوعين من  
برونز برلقى ..

رأيت يفتح فاه قبدا كأنما يحاول التهام الهواء كله ..  
الأرض كلها .. ثم سقط ..



اهتزت المحفة وتقدم حملوها .. ولاحظت في الوقت ذاته أن حشد المتوحشين بدأ يختفى .. كأن الغلبة للتي بصفتهم قد استنشقتهم ثاتية إلى داخلها ..

وكان المدير يمشى جواره يهمس بشيء في أنه .. وقد نقلوه إلى كابينة صغيرة على القارب البخارى .. مجرد مكان لفراش ومقعد .. كانوا قد أحضروا مراسلاته وخطابته ، فراحت يده تبحث في وهن بين هذه الأوراق .. وقد تسمرت لما رأيت النار في عينيه .. لم يبد متألماً .. وكان ظله راضياً هادناً ..

فتح أحد الخطيبك ونظر لى مباشرة فى عيني ، وقل :

« أنا مسرور .. »

هناك من كتب له عنى .. إن التوصيات تظهر إلى السطح ثاتية ..

وقد ثارت دهشتى كمية للصوت التى خرجت منه دون جهد .. حتى من دون أن يبد شفتيه .. صوت ! أى صوت ! كان جاداً عميقاً رناناً بينما الرجل لا يبدو قادراً على

الهمس .. لكن كانت فيه قوة كافية كي يحسم أمرنا كما ستعرفون فيما بعد .

ظهر المدير صامتاً على الباب .. خرجت فأسدل الستار من خلفى .. وكان الروسى يرمى الساحل .. تابعت نظرتة فرأيت أشكالا سوداء عن بعد .. وقرب للنهر شبهان برونزيان يستندان إلى رمحين طويلين ، وعلى رأس كل منهما غطاء رأس جميل من الجلد المبرقش ..

ومن اليمين إلى اليسار تحرك شبح متوحش جميل لامرأة .. كانت تمشى بخطى محسوبة ، ملفوفة فى ثياب مخططة .. تطأ الأرض بفخر .. مع رنين حليها وزينتها البربرية ..

رأسها شامخ وشعرها مصفف كأنه خوذة .. وقد بلغت الحلى النحاسية ركبتيها ومرفقيها .. وعدد لا يحصى من قلائد الخرز حول عنقها .. وكان هناك شيء مثير للتوجس فى مشيتها المصممة ..

وسط هذا الصمت بدا كأن الدغل الرهيب ينظر لها ..  
اتجهت إلى القارب للبخارى ووقفت تواجها صامئة ..  
ظلها الفارع يسقط على صفحة الماء .. على وجهها  
أسف متوحش وألم عميق ..

هناك وقفت تنتظر لنا دون حركة .. كأنما ترعى  
هدفا غامضا ..

غمغم الفتى الواقف جوارى .. وتذمر المسافرون  
من خلفي .. نظرت لنا كأنما حياتها كلها تتوقف على  
ثبات هذه النظرة .. فجأة فتحت ذراعيها ورفعتهما  
إلى السماء كأنما تبغى لمسها ..

واستدارت عائدة إلى الأحرار على اليسار .. مرة  
واحدة فقط استدارت ونظرت لنا قبل أن تتوارى ..

قال الفتى فى عصبية :

- « لو طلبت أن تصعد إلى القارب ، فلربما قتلتها  
رميا بالرصاص .. لقد جازفت بحياتى كل يوم طيلة  
أسبوعين كي أبعدها عن الدار .. تشاجرت معها

بسبب أنها لم تعجب بالخرق التى كنت أخرجها لإصلاح  
ثيابى .. ربما كان هذا هو السبب .. لقد شكنتى  
له ( كورتز ) وراحت تشير لى وهى تتكلم .. لا أفهم  
لغة تلك القبيلة ، لكن من حسن حظى أن ( كورتز )  
كان مريضا بحيث لم يهتم بكلامها .. لا أفهم .. على  
كل حال قد انتهى هذا كله الآن .. »  
هنا سمعت صوت ( كورتز ) من وراء الستار .

- « أنقذنى .. أنقذ عاजी أيتها المنحط .. لا تقل  
لى شيئا .. أنت تعرقل خططى .. مريض مريض !  
لست مريضا كما تحب أن تعتقد سأنفذ أفكارى برغم  
كل شيء .. سأعود وأريك ما يجب عمله .. أنت  
تعوق عملى .. لنا .. »

هنا خرج المدير وتأبط نراعى واقتلنى جانباً وقل :

- « حالته عسيرة .. عسيرة .. »

وجد من الضرورى أن يتهدد لكنه لم يرضورة  
لأن يبدو أسفا ..

- « فعلنا كل ما يمكن من أجله .. ألم تفعل هذا ؟

لكن يجب أن نعتزف بأنه أذى الشرعة أكثر ممّا أفادها .. لم يفهم أن الوقت ليس ملائمًا للأعمال العنيفة .. يجب أن نكون حذرين .. تلك سياستى .. إن للمنطقة مغلفة بالنسبة لنا لفترة . هذا مؤسف ! برغم أنه مازال لدينا الكثير من العاج أكثره من الحفريات .. لكن انظر مدى حرج موقفنا .. والسبب ؟ لأن أسلوبه لم يكن سليمًا .. »

سألته ناظرًا إلى الشط :

- « هل تعتبر الأسلوب غير سليم ؟ »

صاح فى حرارة :

- « بلا شك .. ألا ترى هذا ؟ »

قلت بعد قليل :

- « لا أرى أن هناك أسلوبًا على الإطلاق .. »

وأردفت :

- « على كل لنا اعتقد أن ( كورتز ) رجل متميز .. »

جاء الروسى ودق بإصبعه على كتفى لينبهنى إلى ما يقول :

- « أخى البحر .. لا نستطيع أن نخفى معرفة أمور قد تؤثر فى سمعة مستر ( كورتز ) .. »

كنت أعتبر المستر ( كورتز ) فى قبره بالفعل الآن ، لكن الفتى اعتبره خالداً لا يموت .. فقلت له :

- « تكلم .. »

قال إنه لو لم يشعر بأننا زميلان فى المهنة ، لما تكلم أصلاً .. لأنه يشعر بأن هؤلاء الرجال البيض لا يدخرون نية طيبة تجاه مستر ( كورتز ) ..

قلت له إنه على حق ، ونصحته أن يبحث عن أصدقاء من المتوحشين يحمونه لو كان له بينهم أصدقاء ..

- « الكثير منهم . »

وقال لى همسا إن ( كورتز ) هو الذى أمر المتوحشين بالهجوم على القارب البخارى ..



- « كان يكره فكرة أن يؤخذ بعيداً . لكنى لا أفهم هذه الأمور .. أنا رجل بسيط .. فكر فى أن هذا سيجعلكم تعودون من حيث جئتم إذ تحسبون أنه قد مات .. ولم أستطع منعه .. »

ثم أضاف :

- « سأرحل أنا .. هناك قارب وثلاثة رجال سود ينتظرون على مقربة .. »

وافقته .. فتناول قبضة من التبغ الخاص به ، وقال :

- « هذه أمور بين البحارة وبعضهم .. كما تعلم .. طباق إنجليزى ممتاز .. »

وقبل الرحيل توقف وسألنى عما إذا كان لدى حذاء .. ورفع قدميه فوجئت أن حذاءيه لا نعل لهما .. وإن تم ربط الأطراف بالحبال كالصندل .. أعطيته حذاء قديماً عندي ، فتفحصه فى إعجاب ، ثم وضعه تحت إبطه .. بدا كأنما هو راض تماماً عن استعداداه للمواجهة القادمة مع البرية ..

قل :

- « رباه ! لن أقابل رجلاً كهذا مرة أخرى أبداً .. لو أنك سمعته يتلو الشعر .. شعر ! ومن تأليفه ! »  
واقسعت عيناه كأنما يستعيد تلك الخبرات ، وأضاف :

- « لقد جعل عقلى يتسع .. »

- « وداعاً .. »

فصافحنى وتوارى فى الظلام .. أحياناً أتساعل عما إذا كنت قد رأيته حقاً .. عما إذا كان من الممكن أن توجد ظاهرة عجيبة كهذه !

صحويت بعد منتصف الليل لألقى نظرة ..

هناك على التل كانت نار هائلة تشتعل .. وكان أحد رجالنا مستعينا بعدد من رجالنا السود ، يحرس العاج .. لكن فى الغابة كانت أضواء حمراء متراقصة تحدد بالضبط الموضع الذى أقام فيه عبدة مستر ( كورتز ) مصكرهم .. كى يسهرُوا فيه سهرتهم الشاقة ..

ثمة صوت طبله رتيب يدوى فى الهواء .. وجاء  
صوت مجموعة من الرجال يغنون تعاويذ غامضة كل  
لنفسه .. دندنة كأنها طنين النحل تبعث تأثيراً منوماً  
على حواسي نصف النائمة ..

أعتقد أنني نمت وأنا استند إلى الحاجز ، حتى  
اندلعت صرخات حادة .. جنون غامض أيقظنى فى  
حيرة .. ثم سرعان ما انتهى من جديد وعادت  
الدندنة ..

نظرت إلى القمر فראيت ضوءاً لكن مستر  
(كورتز) لم يكن هناك .

لولا أنني كنت نصف غاف ، لأطلقت صرخة رعب ..  
الحقيقة هى أن الرعب المجرد الوحشى تملكنى ..  
وهو لا يمت بصلة لأى رعب مادى ..

سرعان ما تغلبت على هذا الهلع الأولى ، وهدأت  
قليلاً .. حتى إننى لم أصرخ أو أستدعى الآخرين ..  
توجهت إلى الشاطئ .. والسبب هو أنني شعرت

بالحاجة إلى مواجهة الكابوس الذى صنعه لنفسى ..  
كنت بحاجة إلى هذه التجربة دون أن أشرك أحداً  
سواى فيها ..

فما أن بلغت الشط حتى رأيت طريقاً بين  
الأعشاب ..

أذكر الفرحة التى قلت بها لنفسى :

« الرجل لا يقدر على المشى بل هو يزحف على  
أربع .. سأظفر به .. »  
كان العشب مبتلاً بالندى ..

فى خيالى رأيت العجوز ذات القطة جالسة تتمسج ..  
ورأيت المسافرين يطلقون الرصاص لأعلى من بنادق  
الوشستر ..

قلت لنفسى إننى لن أعود إلى القارب أبداً ..  
وتخيلت نفسى وحيداً بلا سلاح فى الأحراش حتى  
أشيخ ..

أفكار بلهاء .. ولقد واصلت تتبع الأثر .. كان الليل  
صافيًا كأنه فضاء لزرق تنقف فيه أجسام سوداء متصلة  
ساكنة ..

دنوت منه ولو لم يكن قد سمعني لسقطت فوقه ..  
لكنه نهض في الوقت المناسب .. شاحبًا مهتزًا كأنه  
بخار خرج من الأرض .. لقد قطعت عليه الطريق  
ببراعة لكن حين واجهته ثبت إلى رشدي .. رأيت  
الخطر بحجمه الحقيقي ..

ماذا لو صرخ ؟ برغم أنه واهن جدًا لكن صوته  
ما زال قويًا ..

قال لي :

« ابتعد .. أخف نفسك ! »

نظرت خلفي فوجدت أننا على بعد ثلاثين ياردة  
من أقرب نار .. قلت له :



دنوت منه ولو لم يكن قد سمعني لسقطت فوقه  
لكنه نهض في الوقت المناسب .. شاحبًا مهتزًا



- « هل تدرك ما تفعله ؟ »

- « تمامًا .. »

ورفع صوته بما بدا لي كأنه صراخ .. فقلت لنفسى :  
لو أحدث جلبة فلسوف نضيع ..

- « سوف تضل طريقك .. »

أحيانًا يهبط الإلهام على المرء .. لقد قلت الشيء  
الصحيح برغم أنه ما كان ليضل طريقه أبدًا كما ضله  
فى تلك اللحظة .. اللحظة التى بدأت أواصر صداقتنا  
تتكون فيها ..

قال :

- « كنت على حافة إجتازات عظيمة .. والآن جاء  
هذا الوغد .. »

قلت مؤكدًا :

- « نجاحك فى أوروبا لا يحتاج إلى إثبات ..  
بالمناسبة .. لو صرخت سأضطر إلى كتم نفسك .. »

لم تكن أحب أن أنكم أنفاسه كما تطمون .. ولو فطنت  
لما أجدتني هذا فتيلًا ، لكنى كنت أريد أن أحطم سحر  
البرية المسيطر عليه .. للسحر الذى يناديه ويحيى فيه  
غرائز منسية متوحشة .. هذا فقط .. كما افئنت ..  
كان هو ما يقوده مبهورًا مفتونًا إلى الدغل .. إلى  
وهج النيران .. وقرع الطبول ..

لم يكن الخطر هنا هو أن أتلقى ضربة قاتلة على  
رأسى ، برغم أننى كنت أفهم هذا الخطر جيدًا ، ولكن  
أنسى مضطر للتعامل مع كائن لا يمكن أن أروى له ..  
بل ربما اضطررت مثل الزوج إلى أن أتضرع له كي  
يقتنع ويهدأ .. لكنه كان قد تحرر من كل قيود  
الأرض .. ركل الأرض كي يبعدها عنه ..

لقد تبادلنا بعض العبارات لكنها كانت كأنها تقال  
فى الأحلام والكوابيس .. الروح ! لو كان هناك رجل  
فى هذا العالم قد تكلم مع روح فأنا هو ! لم يكن لى

من منجى ولا حل إلا قتله وقتها وحيث كان .. لكن  
كان فى هذا خطر لا بأس به ، لو فكرنا فى الضوضاء  
التي ستحدث ..

لكن روحه كانت قد جنت .. لقد أصابتها الوحدة  
وسط البرية بالجنون .. وكان على أن أقرب منها  
فتشوه كل ما أعرفه عن الإنسانية .. رأيت لغز  
الروح التي لم تكن لديها ضوابط .. لم يكن لديها  
إيمان .. لم يكن لديها خوف .. لكنها تحارب نفسها  
طيلة الوقت ..

وحين استطعت أخيراً أن أعود به وأرقده على  
الأريكة ، كانت قدمائى تهتران من تحتى كأنما حملت  
طنناً على ظهري .. برغم هذا لم أفعل إلا أن أسندته  
وذراعه العظمية حول عنقى ، ولم يكن أثقل من  
طفل ..

فى ظهيرة اليوم التالى رحلنا .. كان الجمع الذى

كنت أشعر به طيلة الوقت خلف ستائر الأشجار ، قد  
خرج ليملاً الفسحة مغطياً المنحدر بكثلة من الأجساد  
البروتزية الراجفة .. أطلقت المحركات ، وراحت  
ألف عين ترمق شيطان المياه وهو يضرب الأمواج  
مبتعداً ، قاذفاً بالدخان الأسود فى الهواء ..

حملنا ( كورتز ) إلى قمرة القيادة ، حيث كان هناك  
الكثير من الهواء .. وعلى الأريكة راح يرمى خصلص  
النافذة المفتوحة .. كانت هناك دوامة بين الأجساد  
وظهرت المرأة ذات الشعر المصفف كخوذة ..  
ركضت نحو حافة النهر ، ومدت يديها وصرخت  
بشيء ما فردد الحشد صيحتها بأعلى صوت ..  
سألت :

- « هل تفهم هذا الكلام ؟ »

ظل ينظر خلفى بعينين مشتافتين تختلطان بتعبير  
يوحى بالمقت ..

لم يرد لكنه ابتسم .. ابتسامة لا معنى لها .. ظهرت  
على شفتيه عديمي اللون اللتين ارتجفتا بعد  
هذا ..

وقال :

- « هل يمكن ألا أفعل ؟ »

أطلقت صفارة القارب ، لأنني رأيت ركاب القارب معي  
يتأهبون بينادقهم وكأنما هم يترقبون صيدا ممتعا ..  
فلما نوى الصغير بب الرعب في كتلة الأجساد .. وصاح  
أحدهم على القارب :

- « لا .. لا تفزعهم فيفروا .. »

لكنني جذبت الخيط مرارا .. ففر القوم هلغا من  
الصوت .. فقط لم تتحرك تلك المرأة الخارقة للبربرية  
ومدت ذراعيها نحو النهر بشكل مسرحي ..

عندها بدأ المعتوهون على القارب حفلهم ، ولم  
أعد أرى شيئا من بخان الطلقات ..

خرج النهر من قلب الظلام بسرعة .. يحملنا  
للبحر بضعف السرعة التي جننا بها .. وكذا راحت  
روح ( كورتز ) تتسلب منه بسرعة إلى بحر الأبدية ..

كان المدير هادئا جدا فلا شيء يقلقه الآن ..

أصدر ( كورتز ) صوتا .. صوتا ! دوى عميقا  
حتى النهاية .. لقد قاوم ! قاوم .. بقايا مخه المنهك  
تسكنها الظلال الآن .. أشباح الثروة والشهرة .. كان  
يتكلم عن « محطتي » .. « مهنتي » .. « خطيبتى » ..  
بحرارة ملتبهة ..

أحيانا كان يقترب من الطفولة ، ويتمنى أن يلقاه  
الملوك في محطات القطار لدى عودته من لا مكان ..  
حيث نجح في تحقيق عظام الأمور ..

وكان يقول :

- « سترىهم أن فيك شيئا عظيم النفع .. وعندها  
لن تكون هناك حدود لتقديرهم لكفاءاتك .. »



وكانت المنحنيات تتكرر في مسار القارب .. كأنها  
نفس المنحنى الأزل .. بنفس الأشجار التي ترمق تلك  
القطعة الكئيبة القادمة من عالم آخر .. الأشجار التي  
سبقت ظهور التغيير .. الغزو .. التجارة ..

ذات يوم قال لي ( كورتز ) :

- « أوصد النافذة .. لا أتحمّل أن أرى هذا .. »

فعلت كما قال .. فقال :

- « آه .. لكنني سأعتصر قلبك برغم هذا ! »

قالها للبرية الغامضة ..

احتجنا للاستقرار في جزيرة بعض الوقت لإجراء  
إصلاحات ، وكانت هذه أول مرة تهتز فيها ثقة  
( كورتز ) .. ذات صباح أعطاني بعض الأوراق  
وصورة فوتوغرافية كلها مربوطة برباط حذاء ..  
قال لي :

- « احتفظ بها لي .. هذا الوغد المؤذى ( يقصد  
المدير ) يمكن أن يتلصص على صناديقى لو تغافلت  
عنه .. »

عند الظهيرة وجنته نائماً على ظهره ينظر لأعلى ،  
فكنت أنسحب لكن سمعته يغمغم :

- « عش كما يجب .. ثم مت .. مت .. »

ولم يقل شيئاً آخر .. هل كان يسمع خطبة في نومه  
أم هي بقايا شيء في جريدة ؟ كان يكتب لبعض  
الصحف وكان يأمل في أن يعاود ذلك ..

كانت ظلمته غير قابلة للاختراق ، وكنت أنظر له  
كما أنظر إلى رجل يرقد في قاع أخدود حيث لا تصل  
الشمس أبداً ..

لكن لم يكن لدى وقت كاف له لأننى كنت أساعد  
الميكانيكى في إصلاح السلندرات المثقوبة وغير ذلك  
كنت أعيش في كتلة جهنمية من الصدا والمطارق

والمثاقب ، وكلها أشياء أكرهها لأننى لا أجد نفسى فيها ..

ذات ليلة دخلت عليه بشمعة فأفزعنى أن أسمعته يقول :

« أنا أرقد هنا فى الظلام بانتظار الموت .. »

كان الضوء على بعد قدم من عينيه .. ووجدتسى مرغماً على أن أقول :

« كلام فارغ ! »

ووقفت أمامه كأنما أنا مسمر ..

لم أرق شئاً يشبه ذلك التغير الذى طرأ على ملامحه .. وأتمنى ألا أراه ..

لم أتأثر لكنى افتتنت .. رأيت فى وجهه العاجى سمات كبرياء وقوة بلا رحمة وذعر جبان .. سمعت يأس عنيف .. هل يعيش من جديد حياته بكل ما فيها

من شهوة وإحباط وألم فى هذه اللحظة من المعرفة الخلقة ؟

صاح مرتين .. صيحة هى أقرب إلى التنفس :

« الهول ! الهول ! »

أطفأت الشمعة وغادرت القمرة ..

كان المسافرون يلتهمون الضياء فجلست أمام المدير ، الذى نظر لى متسائلاً .. لم أرد فاسترخى فى مقعده وعلى قمه تلك الابتسامة الغامضة التى يختم بها على سفالته ..

نلب كثير يحوم حول المصباح وعلى المفروش وعلى أيدينا ..

فجأة أدخل خاتم المدير رأسه الوقح الأسود من الباب وقال فى لزدراء :

« مستاه كورتر .. هو موت .. »

هب الجميع ليروا ، وبقيت أكمل عشقي .. لا بد أنهم  
اعتبروني قاسياً بوحشية .. لكنى لم أكل الكثير .. فى  
الخارج ظلام موحش .. ظلام قاس .. لكنى أعرف أننا  
سندفن شيئاً ما غداً ..

لقد كادوا يدفنوننى معه ..

كما ترون لم ألق بـ ( كورتز ) هناك وساعتئذ ..  
بقيت أحلم بالكابوس حتى النهاية .. مضحكة هى  
تلك الحياة .. ترتيب غامض من المنطق القاسى  
لفرض ما .. كل ما تأملون منها هو بعض المعرفة  
لأنفسكم ..

لقد تصارعت مع الموت .. وكنت تلك أسوأ  
مباراة يمكن أن تتخيلوها ..

إنها تحدث فى فراغ رمادى دون أرض تحت  
قدميك .. ولا شيء حولك .. ولا مشاهدين ولا مجد ..  
ولا الرغبة فى الفوز ..

لو كانت هذه هى صورة الحكمة العظمى ، فإن  
الحياة لغز أكثر تعقيداً مما نحسب ..

كنت تلك آخر فرصة لى لأقول شيئاً ذا بال  
قبل أن أموت ، لكنى لم أجد ما يقال .. لذا أقول  
إن ( كورتز ) كان شخصاً متميزاً .. كان لديه ما يقال  
وقد قاله ..

ولأننى دنوت من حافة الموت مثله ، فإننى أفهم  
نظرتيه .. العينين اللتين لا تريان اللهب لكنهما تريان  
الكون كله ، وتخترقان كل القلوب التى تخلق فى  
الظلام ..

لقد لخص كل شيء وأصدر حكمه :

- « الهول ! »

لقد كان رجلاً مرموقاً .. وكانت كلماته تحوى  
الاقتناع .. تحوى التمرد .. تحوى مذاق الحقيقة ..  
لها رنين خليط من الرغبة والمقت ..



لقد خطا الخطوة الأخيرة فوق الحافة ، أما أنا فقد  
سمح لى القدر بأن أراجع بقدمى للمترددة ..

ربما تتاح لنا كل الحكمة .. كل الحقيقة .. كل  
الصدق فى اللحظة القصيرة التى نخطو فيها فوق  
حافة الظلام ..

\*\*\*

ما زالت أصداء بلاغة (كورتز) تصلنى بعد كل  
هذه الأعوام .. وفى المدينة رحت أرى الناس يركضون  
فى الشوارع يتحاليون على سرقة بعض المال من  
بعض ، ويلتهمون الكعك بسرعة ، ويعبرون الطرقات ..  
أراهم فأكاد أضحك لأن فى تظاهرهم بالحنكة شىء  
من الإدعاء .. إن أحدهم لا يعرف عن الأمر قدر  
ما أعرف ..

أجسر على القول إننى لم أكن على ما يرام فى تلك  
الأيام بعد عودتى إلى المدينة .. لم يكن من شىء يقفر

سلوكى الغريب ، لكن حرارتى لم تكن طبيعية وهى ..  
وأصرت عمى الطيبة على أن تمرضنى ، لكن لم تكن  
قوتى هى التى بحاجة إلى تمرىض .. كان خيالى هو  
لذى يحتاج إلى أن يهدأ قليلاً ..

كانت معى مجموعة أوراق (كورتز)  
لا أعرف بالضبط ما أفعله بها .. لقد توقفت  
ألمه مؤخراً ..

وذات يوم جاعنى رجل حليق الوجه يضع عوينات  
مذهبة الإزار وله طابع رسمى ، ووجه لى بعض  
أسئلة غير مباشرة فى البداية ثم صارت خاتمة لأنه  
يرغب فى الحصول على (بعض المستندات) .. ولم  
أندش لطلبه لأننى تشاجرت مرتين مع المدير على  
نفس الموضوع ..

رفضت طلب المدير ، وكذا رفضت طلب هذا  
الموظف .. لذا بدا مهدداً وقال إن من حق الشركة

أن تحصل على كل ما معى من أوراق .. وأن تحصل  
على أية معلومة عن (مقاطعاتها) ..

وقال :

- « لا بد أن علم مستر (كورتز) ببعض الأماكن  
المجهولة لنا، هو علم واسع ودقيق .. بفضل  
قدراته الخاصة والظروف القاسية التى كان فيها ..  
لهذا .. »

قلت له إن مستر (كورتز) لم يكن يهتم بأشياء  
تعنى الإدارة ..

هنا توصل باسم العلم :

- « ستكون خسارة لا تقدر بمال لو .. إلخ ...  
إلخ .. »

عرضت عليه التقرير الخاص بـ (كبح للمعاملات  
الوحشية) وانتزعت الملحوظة التى كتبها (كورتز)  
فى نهايته ..

أخذه فى لهفة .. ثم بدا عليه الإرباء وقال :

- « ليس هذا هو ما تمك للحق فى توقعه .. »  
قلت له :

- « لا تتوقع شيئاً آخر .. فلا توجد سوى خطابات  
شخصية .. »

انصرف مع تهديد بإجراءات قانونية .. ولم أره  
ثانية ..

ثم جاعنى من يعتبر نفسه (ابن عم كورتز) بعد  
يومين .. وكان متلهفاً كى يسمع أخبار لحظات قربه  
الأخيرة .. وأفهمنى أن (كورتز) كان موسيقاراً  
بارعاً ..

قلتها للرجل ولم أر ما يدعونى إلى الشك فى هذا ..  
ولقد عجزت تماماً عن فهم مهنة (كورتز) الأصلية  
لو كان يملك مهنة .. ولعل هذه أهم مواهبه .. لعله

رسام يكتب أو صحفي يستطيع الرسم .. لكن حتى  
ابن عماء لم يستطع أن يحدد من هو .. كان عبقرياً  
عاماً ..

وافقت الفتى على هذا بينما انسحب في حزن ..  
حاملأ بعض الخطابات والذكريات العائلية ..

ثم جاءنى صحفي كث الحاجبين يسأل عن ساعات  
صديقه الأخيرة .. وقال لى إن ( كورتز ) كان سياسياً  
نشطاً ..

واعترف لى برأيه أن ( كورتز ) لم يكتب على  
الإطلاق ..

- « لكن رباه ! ما أبرع الرجل فى الكلام ! كان  
يكهرب الاجتماعات الكبرى .. كان لديه اليقين ..  
الأتري هذا ؟ كان يستطيع أن يجعل نفسه يؤمن  
بأى شىء .. أى شىء .. كان زعيم حزب من  
الدرجة الأولى .. »

- « أى حزب تبنى ؟ »

- « أى حزب .. »

ثم سألنى :

- « هل تفهم السبب الذى جعله يذهب هناك ؟ »

قلت : إننى أعرف وأعطيته التقرير إياه كى ينشره  
لو رآه مناسباً .. نظر له فى لهفة وغمغم بأنه  
( سوف يصلح ) ثم بادر إلى الفرار بما غنمه ..

هكذا وجدت نفسى مع حزمة خطابات وصورة  
الفتاة .. أدهشنى أنها جميلة .. أعرف أن حتى ضوء  
الشمس يمكن أن يكذب ، لكن ما من طريقة تخدعك  
يظهر ملامح لصديق والصفاء للبالية فى هذا الوجه ..  
يمكنها أن تصغى دون تحفظ ذهنى ولا شكوك ..  
بلا تفكير فى نفسها ..

قررت أن أذهب وأعطيتها صورتها والخطابات ..



فضول ؟ نعم .. مع شعور آخر .. لقد انتهى كل ما كان ( كورتز ) .. عاجه .. خططه .. محطته .. لم تبق إلا ذكراه وخطيئته .. وقد أردت أن أتخلص من هذه أيضا كي لا يبقى لى إلا النسيان ..

لا أعرف حقاً ما الذى أردته .. ربما هو نوع من الولاء اللا شعورى .. لا أعرف .. لا تفسير لى .. لكنى ذهبت لألقاها ..

وعند الباب العلى ما بين المبنى الشامخة فى الشارع الساكن المزخرف ، كأنه زقاق معتنى به فى مقبرة ، رأيته على المحفة .. يفتح فمه بشدة كأنما ليلتهم كل الأرض بمن عليها من بشر ..

كان ما زال حياً كأنه ظل أكثر قتامة من ظل الليل .. ملفوفاً بعناية فى كفن الكلام البليغ ..

بدا كأنه يدخل البيت معى .. ومعه حاملو المحفة وحشد المتعبدین وكآبة الدغل .. وقرع الطبول وقلب الظلام ..

كانت لحظة نصر للبرية .. وتكرى ما قاله هناك فى وهج النيران بين الغابات الصبور ، وتلك الجمل المهشمة .. كلها علالت لى .. سمعتها بوضوح بكل ما فيها من بساطة مخيفة ..

وتذكرت ما قاله لى يوماً :

- « هذا العاج كله لى .. لا يخص الشركة فى شيء فهى لم تدفع ثمنه .. لنا جمعته وخاطرت كثيراً جداً .. ماذا تحسب واجبى أن أفعل ؟ أقولم ؟ لا أبغى سوى العدل .. »

لم يبع سوى العدل ..

كررت هذه العبارة لنفسى وأنا أقف أمام باب من خشب الماهوجنى .. وإذا انتظرت شعرت بأنه يرمقنى من وراء الزجاج .. تلك النظرة التى تبدو كأنما هى تكره الوجود كله ..

كان الغسق يهبط .. وانتظرت فى غرفة فاخرة

متفطرة بها ثلاث نوافذ ترتفع من الأرض إلى  
السقف ..

المدفأة من رخام أثري ، وثمة منضدة ثمينة ..

جاءت في ثياب سود ورأس شاحب .. تطفو نحوى  
في الضيق .. كانت تلبس الحداد برغم أن عامًا مر  
على وفاته .. منذ بلغتها الأخبار .. لكن بدا أنها  
ستنفيه للأبد ..

أمسكت بيدي بين يديها وقالت :

« سمعت أنك قادم .. »

لاحظت أنها ليست صغيرة السن جدًا .. ليست طفلة .  
كانت لديها قدرة ناضجة على الإخلاص .. على  
التصديق .. على المعاناة ..

وبدا كأن كل ضوء المساء الحزين قد اتخذ على  
جبينها ملجأ .. وكان حاجبها محاطان بهالة رمادية

تنظر عيناها لي من خلالها .. وكانت تحمل رأسها  
الحزين في فخر بكل هذا الأسى .. وكأنها تقول :

« أنا .. أنا فقط أعرف كيف أحزن عليه كما

يستحق .. »

ولاحظت أنها لم تكن من تلك المخلوقات التي هي  
دمى للزمن يلعب بها كما يشاء .. بالنسبة لها مات  
( كورتز ) أمس .. وقد جعلتني أشعر بالشيء ذاته ..  
سمعتها معًا ورأيتها معًا ..

وفي هلع سألت نفسي : ما الذي أفعله هنا ؟

سألتني أن أجلس فجلست ..

وضعت للحزمة في رفق على المنضدة ، فوضعت  
يدها عليها .. وغضمت بعد دقائق من صمت  
حزين :

« أنت عرفته جيدًا ؟ »

قلت :

- « العلاقات الحميمة تنمو بسرعة هناك .. »

- « وأعجبت به ؟ من المستحيل أن تعرفه  
ولا تعجب به .. أليس كذلك ؟ »

قلت لها بلا راحة :

- « كان رجلاً مرموقاً .. »

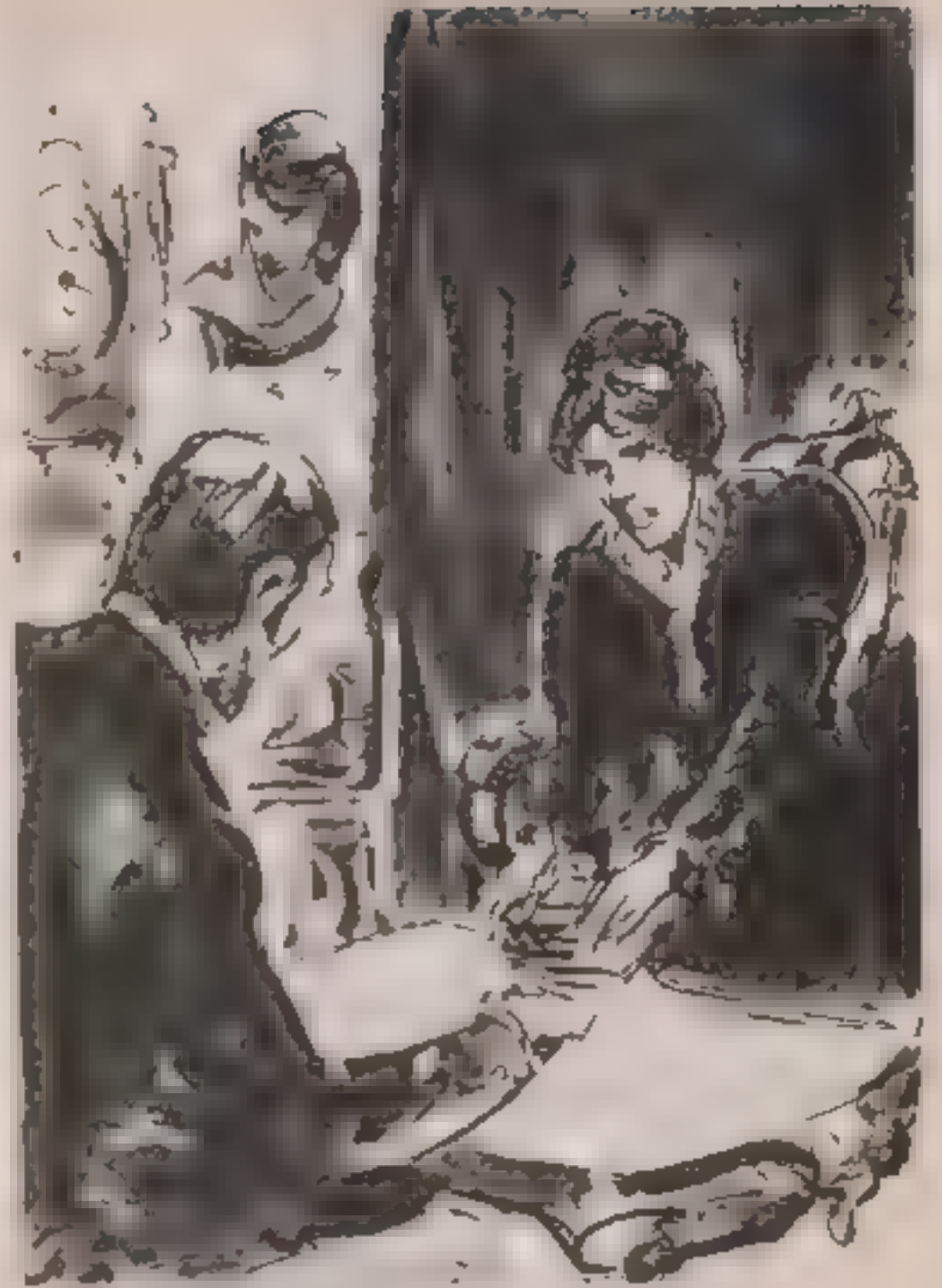
وقبل أن تستقر عيناها على شفتي بحثاً عن مزيد  
من الكلمات ، استطردت :

- « كان من المستحيل أن .... »

- « .... تحبه ؟ أي صديق ! أي صديق ! لكن حين  
تفكر أنه ما من أحد عرفه مثلي ! نلت كل ثقته  
الكريمة .. عرفته أفضل من سواي .. »

كررت كلامها :

- « عرفته أفضل من سواك .. »



وصفت الحرمة في رفق على المصيدة ، فوضعت يدها عليها



ربما فعلت .. لكن مع كل كلمة من كلامها كان  
الظلام يتزايد فى الغرفة .. فلم يبق وامضاً إلا جبينها  
الأبيض بنيره وهج الإيمان والحب ..

واصلت الكلام :

- « أنت كنت صاحبه .. صديقه .. لا بد أنك  
كنت كذلك ما دام أعطاك هذه وأرسلك لى .. أشعر  
بأن بوسعى الكلام معك .. لا بد من أن أتكلم  
معك .. لا بد أن تعرف لئن كنت جديرة به .. ليس  
غروراً .. نعم .. كنت أفهمه أكثر من أى واحد  
على الأرض .. ومنذ ماتت أمه لم يعد لى من  
أحد كى .... كى .... »

ازداد الظلام كثافة ..

لم أكن واثقاً من أنه أعطانى الحزمة الصحيحة ..  
ربما أراد منى أن أعنى بحزمة لخرى رأيت المدير  
يتفحصها بعد موت ( كورتز ) ..

والفتاة تتكلم بلا توقف .. تتكلم كما يشرب رجل  
ظمآن ..

كنت قد سمعت أن أهلها لم يرحبوا به ( كورتز ) ..  
لا بد أن السبب كان فقره .. ولأسباب كهذه ذهب إلى  
حيث ذهب ..

كنت تقول :

- « كان بجانب الناس إليه عن طريق خير ما فيهم  
من صفات .. »

ونظرت لى فى ثبات وأردفت :

- « تلك موهبة العظام .. »

كان صوتها الخفيض يلخص كل الأصوات الأخرى ..  
مليناً بالقصوض والحزن والأسى .. خرير للنهر وحفيف  
الأشجار فى الريح وهدير الزحام .. وهمس من يتكلم  
عبر حافة ظلام أبدي ..

وهتفت :

- « لكنك سمعته .. أنت تعرف .. »

- « نعم .. »

قالت لها بشيء من القنوط ..

لكني خفضت رأسي باحترام لكل هذا الإخلاص ..  
لهذا النور الذي يلتصق في الظلام .. الظلام الذي  
لا أستطيع أن أحملها منه .. بل لا أستطيع أن أحمل  
نفسى منه ..

وقالت في كرم :

- « أية خسارة لى .. لنا ! للعالم ! »

ورأيت في آخر ضوء للنهار الدموع في عينيها ..  
دموعاً من الطراز الذي لا يسقط ..

- « كنت محظوظة .. كنت فخورة .. أكثر حظاً  
من اللازم .. والآن أنا تصبة .. للأبد ! »

ووقفت وشعرها الأشقر يقتصر كل الضوء الباقي  
في بريق ذهبي .. فنهضت ..

- « ومن كل خطئه .. من كل روعته لم يبق  
شيء .. سوى ذكرى لنا .. »

قلت متعجلاً :

- « لسوف نتذكره أبداً .. »

- « ومثاله ! لسوف يقتدى به الناس يوماً كأنه  
الشمس .. »

- « حقاً .. »

ومسدت ذراعيها لأعلى ، فتذكرت ذلك  
المشهد .. هناك واحدة أخرى مدت ذراعيها  
وهي تقف على حافة ذلك للنهر في  
شموخ ..



قالت فجأة :

- « مات كما عاش .. »

قلت وأنا أشعر بغيب في روعي :

- « نهايته كانت جذيرة بحياته .. »

- « ولم أكن معه .. »

وبدا غيظي يتلاشى في شفقة لاحد لها .

قلت لها راجفا :

- « كنت معه حتى النهاية .. سمعت كلماته الأخيرة .. »

قالت بصوت محطم القلب :

- « أعددها على مسمعي .. أريد شيئا أعيش معه .. »

معه .. »

كنت أصرخ فيها :

- « ألا تسمعنيها ؟ »

كان الضيق يوردها في همس مستمر من حولنا :  
الهول .. الهول !

قالت لي مصرة :

- « ألا تفهم ؟ أريد كلماته الأخيرة لأعيش معها !  
فقد أحببته ! »

تهضت وقلت ببطم :

- « آخر كلمة قالها كانت .. اسمك .. »

شبهقت .. ثم توقفت قلبى لدى سماع  
الصرخة .. صرخة انتصار وألم لا يمكن  
وصفه :

- « كنت أعرف هذا .. كنت واثقة ! »

كانت تعرف .. كانت واثقة .. وسمعتها تبكي ..

كانت قد أخفت وجهها بين كفيها .  
بدا لي أن البيت سينهار قبل أن أهرب ..



أن السماء ستسقط على رأسى .. لكن لم يحدث  
شيء ..

وتساءلت .. ماذا لو منحت (كورتز)  
العدل الذى يستحقه ؟ ألم يقل إنه لم يرد  
إلا العدل ؟ لكن لم أستطع .. لم أستطع  
أن أخبرها .. سيكون الظلام أكثر مما  
يحتمل .. «

\*\*\*

فرغ (مارلو) من قصته فجلس صامتاً .. فى  
وضع (بوذا) المتأمل ..

لم يتحرك أحد لبرهة .. وفجأة قال المدير :

- « لقد ضاع منا أول الجزر .. »

فرفعت رأسى لأرى أن أفق البحر تغطيه الغيوم  
الكثيفة .. والماء يمضى إلى نهاية الأرض تحت  
سماء منلهممة ..

كأنه يمضى إلى قلب ظلام هائل .

جوزيف كونرادو - ١٩٠٢



## قلب الظلام

إن (كورتيز) عبقرى .. إنه رجل الرؤى .. هناك  
حيث يقبع وحده جوار النهر والأحراش المظلمة ،  
يملا نفوس القبائل بالرعب ويملا قبضته بالعاج ..  
إن (كورتيز) شاعر بطريقته الخاصة ، وعليها أن  
نذهب إليه لنستمع .. لكن لا بد لنا من رحلة رهيبة  
في ذلك النهر الأسطوري .. لا بد أن نقرب أكثر  
من قلب الظلام ..

45



العدد القادم  
كتب الدم

